Hespéris-Tamuda LVI (3) (2021): 77-113

Ḥawādir tijāriya islāmiya bi al-Ṣaḥrā' (mudun al-qawāfil)

حواضر إسلامية تجارية بالصحراء (مدن القوافل)

Islamic Commercial Cities in The Desert (Caravan Cities)

أحمد مولود أيدّه الهلال
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط العصرية

Abstract: The Sahara had, for centuries, remained a nomadic space par excellence. The Bedouin and nomadic lifestyle had characterized its inhabitants. The tribe, rather than the city, was the main incubator of human society in the desert. The caravan trade had clearly changed the lifestyle of some nomads, for it led to a relative economic prosperity, which improved the living standards for some populations. To refer to Ibn Khaldoun's theory of Beduin urbanization, he argues that the Bedouin economic lifestyle is based on the subsistence level. If there is a surplus exceeding the subsistence line, this could lead to stability, which in turn leads to tranquility and stagnation. At this stage the Bedouins, argues Ibn Khaldun, establish cities, fortify them, and show interest in clothes and dresses.

This is almost applicable to the situation in the Sahara. The rise of the caravan trade in the Saharan space and the emergence of a few caravan trade stations enabled a portion of the population in the region to gradually move from a pastoral nomadic lifestyle to commercial stability. The Great Sahara witnessed the emergence of ancient semi-urban patterns represented in the caravan cities, which had emerged, before the advent of Islam, as a result of the rise of the caravan trade since Antiquity in the Arabian Peninsula and its peripheries. The most famous of these cities were Petra, Palmyra, and Al-Hirah. As for the central African desert, the most famous caravan city was Ghadames, which was mentioned by the Greek writer and geographer, Herodotus. Due to Muslim merchants' interest in the gold of Western Sudan since the VIIIth century, caravan stations began to appear all along the desert roads connecting the Maghreb and Western Sudan. Despite the marginal nature of these cities, they enriched and diversified the physical space of Islam.

These metropolises were a quasi-urban exception to the geography of the Bedouin desert and constituted a rupture on several levels, particularly in the patterns of stability and the modes of space exploitation. We have divided the trade caravan cities that had emerged in the Western Saharan space since the medieval era into two generations: The first generation: the cities of Aoudaghost, Ghana, Tadmaka. These cities emerged, flourished, and decayed in the same period as that of Sijilmasa in the far Maghreb. They were mentioned in Arabic geographical literature in the VIIIth century. As soon as this first generation of cities fell into disrepair at the end of the XIVth century, the second generation started to emerge. These were represented in Walatah, Timbuktu, Ouadane, Tichit and Chinguetti.

Journal Indexed in Emerging Sources Citation Index (Web of Science)
Covered in *Clarivate Analytics* products and services, ISSN: 0018-1005

The cities of the second generation represented a continuity and an extension of the first-generation cities, particularly with regards to the trade functions, the urban patterns, and the methods of exploiting the quasi-urban space. The archaeological excavations of Jean Devise team at Tegdaoust (Aoudaghost) and Ghana (Kombi Saleh) suggest that the first-generation cities had a great influence on the second-generation metropolises that are still alive, in defiance of time!

Keywords: Islamic Cities, Sahara Desert, Caravan Cities, Ksours of the Sahara Desert, Saharan Urban Heritage, History of Saharan Cities.

توطئة

قد لا تخلُ بعض حواضر غربي الصحراء في العصر الوسيط مثل أودغست وأخواتها من بعض خصائص الحواضر الإسلامية ومميزاتها،[1] غير أنها تنتمي في الحقيقة إلى صنف آخر عتيق من حواضر الصحراء، تنعت بـ"مدن" القوافل التي ارتبط ظهورها بازدهار التقاليد المرتبطة بتجارة القوافل منذ القدم في الجزيرة العربية وأطرافها قبل ظهور الإسلام[2] مع حواضر مثل بترا وتدمر ثم الحيرة.[3] وقبل ذلك، كانت تجارة الفينيقيين ثم الرومان مع الصحراء الوسطى بإفريقيا قد أسهمت في ظهور "مدن" قوافل بصحراء إفريقيا منذ العصر القديم، ولعل أشهرها غدامس بالصحراء الليبية حاليا.

وعلى الرغم مما صاحب المد الإسلامي من طابع "تمصير" إلا أنه لم يكن له دور يذكر في تمصير الصحراء الإفريقية، غير أن تجارة المسلمين قد أسهمت ابتداء من القرن الثامن الميلادي في بث أنماط عمرانية بالصحراء الإفريقية حيث ظهرت شبكة من الحواضر التجارية الإسلامية بفعل ازدهار التجارة مع بلاد السودان مثل: زويلة فزّان، وارجلان، وسجلماسة وأودغست وغانة وتادمكه... مع أن الخراب قد طال اليوم جل الحواضر التجارية الإسلامية

1. "[...] Awdaghost et Ghana: Koumbi Saleh [...] ce sont des villes du Maghreb implantées sur la limite de blad es-soudan, de véritables colonies commerçantes sœurs de Sidjlmassa, Noul lamta, Tamdelt, Ouargla, Ghadamés, Zouila du Fazzan, avec lesquelles elles étaient en liaison constante et avaient plus de points communs qu'avec les villes purement négres du sud," Raymond Mauny, *Tableau géographique de l'Ouest africain au moyen-âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie* (Dakar: IFAN, 1961; réédition: Amsterdam: Swets & Zeitlinger N.V., 1967), 389-90.

2. راجع بهذا الخصوص أطروحة دكتوراه عن تاريخ تجارة القوافل في الجزيرة العربية وأطرافها قبل ظهور الإسلام: فكتور سحّاب، **إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف** (بيروت: كومبيونشر والمركز الثقافي العربي، 1992)، 455 صفحة.

3. لا يخفى أن نمط عيش العرب قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وأطرافها يتماثل في جوانب كثيرة منه مع نمط عيش سكان منطقة الصحراء الكبرى الإفريقية، نتيجة لعوامل مناخية وحضارية، وقد درس روبير مونطاني أوجه الشبه والقرابة بين المنطقتين، واعتبر أن صحراء الجزيرة العربية هي مهد الثقافات الصحراوية الذي انتشرت انطلاقا منه أوجه عديدة من "حضارة الصحراء" إلى صحراء إفريقيا، راجع بهذا الخصوص:

Robert Montagne, *La civilisation du désert: nomades d'orient et d'Afrique* (Paris: Hachette, 1947), 22.

الوسيطة بالصحراء الإفريقية، إلا أنها خلفت رغم ذلك تراثا "عمرانيا" من خلال جيل ثاني منها ما زال قائما حريّ به رغم هامشيته أن ينال قسطا من العناية والدراسة شأنه شأن إرث مدن المراكز الإسلامية الوسيطة. ولا يخفى في هذا السياق أن ظهور هذه الشبكة من الحواضر التجارية قد شكلت تنوعا وثراءً للرصيد العمراني للحضارة الإسلامية.

1. دور التجارة عبر الصحراء في نشأة الحواضر

لم تكن إفريقيا بصحرائها الكبرى الممتدة من تخوم مصر شرقا، حتى المحيط الأطلسي غربا[4] بمعزل عن تأثير تجارة القوافل، فقد كان إقليم فزّان[5] من أهم مسالك القوافل عبر التاريخ، وذكر هيرودوت (القرن 5ق.م) المسلك التجاري المؤدي إلى فزّان وإثر استيلاء الرومان على شمال إفريقيا سنة 146ق.م أبدوا اهتماما أكثر من القرطاجيين بالتجارة مع فزّان واكتشفوا مسالك جديدة تؤدي إليه،[6] وتعد غدامس أقدم نموذج ورد ذكره لحواضر تجارة بالصحراء الإفريقية؛ إذ ذكر هيرودوت أنّ واحة سيداموس (Cydamus) كانت المركز الجنوبي للتجارة القرطاجية، ويربطها مسلك تجاري عبر فزّان بالمراسي البونيقية، خصوصا طرابلس التي كانت تُنقل انطلاقا منها بضاعة الصحراء بحرا إلى قرطاج.[7]

كما ارتبط جنوب غربي الصحراء الكبرى حسب ما نقله أ.ف.گوتيه[8] عن هيرودوت بالرحلات البحرية التي قام بها حنّون (Hannon) سنة 480ق.م، إذ يصف هيرودوت القرطاجيين وهم يبادلون بضاعتهم بالذهب في بلاد تقوم وراء أعمدة هرقل، إذ ينزلون البضاعة بانتظام على الشاطئ ثم يعودون إلى مركبهم، ويبعثون منها الدخان لإشعار السكان برحيلهم،[9] ويخلص گوتيه بناء على هذا المصدر إلى أن السفن القرطاجية وصلت

4. تعدّ صحراء إفريقيا من أكبر صحاري العالم وتبلغ مساحتها 6 ملايين كلم2 ولا تتجاوز النسبة المعمورة منها سوى الثلث فقط. راجع: عبد العزيز بنعبد الله، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية (معلمة الصحراء)** (المحمدية: مطبعة فضالة، 1976)، 195.

5. يقع إقليم فزّان في الصحراء الوسطى، ويمتد من تخوم محافظة الفيوم بمصر شرقا إلى محاذاة جنوب طرابلس الغرب.

6. Émile-Félix Gautier, *Le Sahara* (Paris: Payot, 1928), 181-83.

7. Attilio Gaudio, *Les Civilisations du Sahara* (Bruxelles: Éd. Gérard, 1967), 48.

8. Émile-Félix Gautier, *Le passé de l'Afrique du nord* (Paris: Payot, 1952), 36-7.

9. هذا التبادل الذي وصفه هيرودوت في منتصف القرن 5 ق.م ينطبق على التجارة الصامتة التي ذكرتها بعض المصادر المشرقية الوسيطة، وأقدمها المسعودي (ق.4هـ/10م)، راجع: علي بن الحسن المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الصمد، الجزء الثاني (بيروت: المكتبة الإسلامية، دون تاريخ)، 261، وآخرها ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، الجزء الثاني (بيروت: دار صادر، 1957)، 12-13. كما ذكرها أيضا المستكشف الإيطالي لحساب البرتغاليين، كادا موستو (Cada Mosto):

Charles Shefer, *Relation de voyage à la côte occidentale de l'Afrique d'Alvisa Cada Mosto (1455-1457)* (Paris: Ernest Leroux, 1895), 57-62.

وصورة هذا النوع من التبادل، أن يأتي تجار الشمال بسلعهم – التي ينبغي أن تحتوي إضافة إلى بضاعتهم المجلوبة كميات هامة من الملح – إلى النهر ويقسمونها إلى أجزاء ورُزم ثم يبتعدون عن النهر، ليتقدم السودان ويضعون مقابل كل رزمة من البضاعة أو الملح ما يرون أنه يقايضها من الذهب ثم يبتعدون، فيتقدم التجار ليقبلوا المقايضة أو يرفضونها، ولا يخلو هذا النوع من التبادل من مسحة أسطورية ربما تكون من إضفاء مخيال الرواة الإخباريين القادمين من بلاد الذهب،

إلى حدود نهر السينغال، بينما يعتقد ريمون موني[10] أنّ القرطاجيين لم يتجاوزوا رأس جوبي جنوبا.

ومهما يكن من أمر، فإن هيرودوت الذي ذكر التبادل التجاري بين غدامس من حواضر الصحراء الوسطى، ذكر أن رحلات حنّون البحرية وصلت إلى شاطئ وليس حواضر غرب الصحراء، والواقع أن وجود حواضر تجارية بالصحراء الليبية منذ مرحلة مبكرة من التاريخ يمكن تفسيره باحتكاك هذا الجزء من الصحراء بقربه من حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، الفينيقية والرومانية والتي حملت مصالحها التجارية مؤثرات إليه حضارية، إلا أن انفراد الجزء الأوسط من الصحراء الكبرى بوجود تأسيسات حضرية منذ العصر القديم، قد انقلب تماما في العصر الوسيط لحساب لغرب الصحراء الإفريقية، التي نشأت فيها بفعل ازدهار تجارة المسلمين مع بلاد السودان حواضر هامة مثل: سجلماسة، نول لمطة، تامدولت، أودغست وتادمكة، فسجّلت على امتداد العصر الوسيط تفوّقا في عدد الحواضر التجارية بها المنطقة على حساب الصحراء الوسطى.[11]

1.1. شبكة الحواضر التجارية الإسلامية بالصحراء الكبرى

بدأت تجارة السلمين مع بلاد السودان إثر ولاية ابن الحبحاب على إفريقية وإرساله حبيب بن أبي عبيدة لغزو سوس الأقصى وأرض السودان[12] وهي الحملة التي توِّجت بتهيئة عبد الرحمن بن حبيب لمسلك القوافل بين المغرب الأقصى وبلاد السودان[13] مؤذنا بتدفق الذهب نحو الشمال، وكان ازدهار تجارة القوافل بين بلاد المغرب والسودان قد تمّ على أيدي التجار المغاربة الخوارج[14] قبل ظهور المرابطين. وقد اعتمدت مبادلات هذه التجارة على مقايضة سلع الشمال بذهب الجنوب، واحتلت مادة الملح أهمية بالغة في التبادل المباشر مع السودان[15]

ولعل هذا ما يفسر وجودها في المصادر المشرقية البعيدة، وخلو المصادر المغربية القريبة لها من أي ذكر لذلك، راجع بخصوص أسطورية التجارة الصامتة:

Paulo F. de Moraes Farias, "Silent Trade: Myths and Historical Evidence," *History in Africa* I (1974): 9-24.

10. Raymond Mauny, *Les siècles obscurs de l'Afrique noire* (Paris: Fayard, 1970), 99.

11. Robert Capot-Rey, *Le Sahara français* (Paris: PUF., 1953), 245.

12. عبد الرحمن ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1987)، 93-94.

13. أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، نشره البارون دي سلان (الجزائر: مطبعة الحكومة، 1857)، 156-157.

14. Claude Cahen, "L'or du soudan avant les almoravides: mythe ou réalité?," *Revue française d'histoire d'outre-mer* LXVI, no. 242-243 (1979): 174.

15. احتلت مادة الملح أهمية بالغة في المبادلات مع بلاد السودان في العصر الوسيط وحتى الحقبة الحديثة، إذ تتم مقايضته بالذهب والسلع الأخرى، ويبدو أن هذه المادة كانت حيوية لدى سكان السودان الغربي، الذين كانت لديهم حاجة فيزيولوجية لها، وربما يعوض استعمالها المفرط ما يفقده الجسم لديهم من أملاح في المناخ الحار جنوب الصحراء، فضلا عن إمكانية استخدامها لحفظ الأسماك المجفّفه من التلف السريع. راجع: أبو عبد الله الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** (روما-نابولي: المعهد الجامعي للدراسات الشرقية، 1971)، 20.

إذ يعتبر ريمون موني[16] أن المقايضة تتم بدرجة أولى بين الذهب السوداني[17] والملح الصحراوي. ومع ازدهار التجارة مع بلاد السودان في العصر الوسيط تم إحياء بعض المسالك القديمة مثل الطريق اللمتوني الذي كان يربط بين مضارب قبيلة لمتونة الصنهاجية في ضفتي الصحراء وإعادة استغلاله. في حين كانت "مناجم" الملح محطات لا محيد عن التوقف بها بالنسبة للقوافل للتزوّد بهذه المادة.[18] وقد تعدّدت طرق القوافل التجارية التي تربط المشرق وإفريقية والمغربين الأوسط والأقصى ببلاد السودان عبر الصحراء. ويبدو أن المسلك الشرقي الذي يربط غانه بواحات مصر عبر كاوه وتادمكة أقدم من المسلك الغربي[19] إلا أن ابن حوقل في منتصف القرن 4هـ/10م ذكر أن هذا الطريق لم تعد تسلكه القوافل نتيجة الرياح وقطّاع الطرق الذين كانوا سببا في هلاك العديد من القوافل، فتمّ الانتقال عنه إلى الطريق الغربي عبر سجلماسة[20] والذي يربط بين هذه المدينة وأودغست ثمّ غانه. وعلى طول هذين المسلكين،[21] بدأت "التقاليد العمرانية" المرتبطة بتجارة القوافل في النموّ على محطات هذا المسلك. وتعتبر زويلة[22] "المرسى" الشرقي للتجارة الصحراوية في

16. Mauny, *Tableau géographique*, 325.

17. يستخرج ذهب السودان من مناجم توجد بالقرب من أعالي حوضي نهري النيجر والسينغال، وأهمها: بامبوك، بوري، وكالام.

18. من المعلوم جيولوجيا أن الملح ينقسم إلى صنفين: بحري وصخري، وقد شكلت مناجم الملح الصخري ثروة هامة لقبائل صنهاجة الصحراوية إذ يتمّ مقايضته بالذهب، وقد ذكرت المصادر العربية الوسيطة منجم أوليل الذي يقع بسبخة أفطوط بولاية الترارزة حاليا. راجع: أبو القاسم النصيبي ابن حوقل، **صورة الأرض** (بيروت: دار صادر، دون تاريخ)، 91؛ وكذلك البكري، **المغرب**، 171، وأيضا الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 17. كما ذكر البكري، **المغرب**، 171 منجم تاتنتال الذي يرى ريمون موني أنه يعني به منجم تغازه، راجع: Mauny, Tableau géographique, 359، والذي كانت تملكه قبيلة مسوفة الصنهاجية. ويبدو أن استغلال منجم الجل متأخر، قد يعود إلى نهاية القرن 15م وبداية 16م، راجع بخصوص مناجم الملح:

Henri Gaden, "Les salines d'Aoulîl," *Revue du monde musulman* XII (1910): 436-43; Elizabeth Ann McDougall, "The Ijil Salt Industry its Role in the Pre-Colonial Economy of the Western Sahara" (Ph.D, University of Birmingham, 1980), 1200 p.

19. أبو بكر أحمد بن محمد ابن فقيه الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان** (ليدن: بريل، 1967)، 68.

20. ابن حوقل، **صورة الأرض**، 6.

21. تخلّلت الصحراء الإفريقية في العصر الوسيط عدة مسالك رئيسة وثانوية، أبرزها الطريقين الشرقي والغربي:

Jean Devisse, "*Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XI^e au XVI^e siècle*," *Revue d'histoire économique et sociale* L (1972): 42-73 et 357-97; Mauny, *Tableau géographique*, 426-41.

22. تطلق زويلة على عدة مواضع؛ أولها قصبة أعمال فزّان، وزويلة أيضا أحد أرباض مدينة المهدية، كما أن زويلة تطلق على أحد أبواب القاهرة، راجع ياقوت، **معجم البلدان**، الجزء الثالث، 159-160، والذي يهمّنا هنا زويلة فزّان، فقد ذكر اليعقوبي، نهاية القرن 3هـ/9م أهميتها التجارية، راجع: **كتاب البلدان**، ضمن: **كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته** (ليدن: بريل، 1892)، 345؛ في حين ذكر الإدريسي أن الذي بناها هو عبد الله بن الخطاب سنة 306هـ/918م، راجع: الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 115-116. وظلت زويلة طيلة العصر الوسيط قصبة أعمال فزّان والميناء الشرقي للتجارة الصحراوية مع بلاد السودان حتى تأسيس مرزوق في القرن 10هـ/16م، وهي التي سلبتها أدوارها، راجع:

Jean Despois, "Fazzan," in *Encyclopédie de l'Islam*, 2nd, ed, vol. II (Leyde-Paris: E.J. Brill- G.-P. Maisonneuve & Larose S.A., 1965), 895-98.

الحقبة الوسيطة[23] قبل ولوج القوافل الواحات المصرية[24] في حين كان ودّان[25] محطة هامة للقوافل بين زويلة وغدامس[26] التي استمرت مع العصر الوسيط في أداء دورها التجاري الذي اضطلعت به منذ العصر القديم كمحطة هامة للتجارة الصحراوية، ولا تسعفنا المصادر إلا بإشارات قليلة عن الدور التجاري لقسطيلية.[27] ويبدو أن القوافل التجارية كانت تحط رحالها بالقيروان والمهدية وتونس، قبل أن تواصل مسيرها نحو الشرق مرورا ببلاد الجريد. ولعل هذا سبب إحجام المصادر عن ذكر هذه المحطة المفترض أنها هامة على المسلك الشرقي، في حين تظهر مدينة وارجلان: ورقلة الحالية[28] كمركز هام للتجارة الصحراوية بالمغرب الأوسط. كما احتلت تاهرت[29] عاصمة الإمامة الرستمية أهمية خاصة

23. سبق الإشارة إلى تغيّر قصبة أعمال فزّان عبر الحقب التاريخية، حيث كانت جرمة في العصر القديم ثم انتقلت إلى زويلة في العصر الوسيط، ثم إلى مرزوق في العصر الحديث، وكانت جميعا "مراسي" للتجارة الصحراوية، راجع:
Gautier, *Le Sahara*, 184-5.

24. تعتبر واحات داخلة وخارجة الواقعتان جنوب غربي أسيوط، مدخل الصحراء المصرية، وقد كانتا إحدى المحطات الهامة للقوافل التجارية المتجهة والقادمة من المشرق في العصر الوسيط، كما أنها نموذج "لحواضر الواحات الصحراوية،" راجع: ابن حوقل، **صورة الأرض**، 144-145؛ وكذلك الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 22؛ أيضا: Gautier, *Le Sahara*, 145

25. تطلق ودّان على عدة مواضع منها مدينة بإفريقية في حيّز برقة مسيرة عشرة أيام من زويلة، مشهورة بكثرة واحاتها وجودة تمورها، راجع: اليعقوبي، **كتاب البلدان**، 345؛ وكذلك ابن حوقل، **صورة الأرض**، 70؛ أبو عبيد الله البكري، **معجم ما استعجم، في أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقار، الجزء الرابع، (بيروت: عالم الكتب، دون تاريخ)، 1375. وقد ذكر الإدريسي أنها كانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة إلى أن جاء دين الإسلام فخافوا وتوغلوا هربا في الصحراء، وأنها بقيت خرابا، راجع: الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 115. ورغم ما ذكره الإدريسي من معلومات انفرد بها عن غيره، لم تحجم المصادر اللاحقة له عن ذكر ودّان كمحطة تجارية، فقد ذكرها ياقوت، معجم البلدان، الجزء الخامس، 365-366؛ وكذلك أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد، **كتاب الجغرافية**، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1970)، 127.

26. سبق وأن أشرنا في المقدمة إلى دور غدامس التجاري في العصر القديم، والمعلوم أن هذه الحاضرة الواحة تقع اليوم في ليبيا على بعد 600 كيلومتر جنوب طرابلس، قد حافظت على مكانتها في العصر الوسيط بفضل موقعها على مسلك تجاري هام كمحطة تجارية واستراحة للحجيج، وهذه الحاضرة تعتبر من أقدم حواضر صحراء إفريقيا مازالت تغالب الزمن، وتعد من أقدم نماذج الحواضر التجارية بالصحراء، راجع:
Gaudio, *Les Civilisations*, 48 et suivant; Jean Despois, "Ghadamès," in *The Encylopedia of Islam*, vol II (Leiden: E.J. Brill-Tuta Sub Aegid Pallas, 1991), 991-3.

27. من المعلوم أن قسطيلية تطلق لدى المصادر الوسيطة على واحات بلاد الجريد بإفريقية الوسيطة التي كانت مجال تونس الحالية وتضم قسطيلية كلا من واحات توزر، نفطة والحامة، راجع: البكري، **المغرب**، 48. ومن المصادر القليلة التي أمدّتنا بمعلومات عن الدور التجاري لقسطيلية ابن حوقل حيث ذكر أنها " من السعة والبيوع والأشربة والأسواق وكثرة الوارد والصادر عليها ملتمسين للمير والتجارة بما لا يدانيها مدينة مما قاربها." راجع ابن حوقل، **صورة الأرض**، 92.

28. تأسست مدينة وارجلان/وارقلان سنة 467هـ/1075م، إثر تخريب سدراتة قاعدة الإمامة الرستمية الثانية، في موضع قريب من أطلال هذا الموقع بإقليم المزاب، من طرف الإباضين الفارين من سدراته، كما ينسب تأسيسها أيضا لقبيلة بني وارقلان التي كانت توجد بتلك الجهة، راجع:
Jean Lethieleux, *Ouargla cité saharienne* (Paris: Paul Geuthner, 1983), 87-98.

29. وعن تاهرت، ذكر ابن حوقل أنها مدينتان كبيرتان: إحداهما أزلية والأخرى محدثة، راجع: ابن حوقل، **صورة الأرض**، 86. ولعل المحدثة هي قاعدة الإمامة الرستمية أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة 144هـ/761م، وذكر ابن الصغير أنها كانت تأتيها الرفاق (القوافل) من كل الأمصار وكانت ملتقى طرق التجارة القادمة من المشرق وإفريقية وبلاد السودان، راجع: ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز (بيروت: دار الغرب

في التجارة مع بلاد السودان في العصر الوسيط، وقد ظلت سجلماسة[30] طيلة العصر الوسيط ملتقى طرق القوافل، وقطب رحى التجارة الصحراوية، كما اضطلعت أغمات[31] بدور هام في المبادلات التجارية قبل تأسيس مراكش.

كما ازدهرت بمنطقة سوس الأقصى في هذه الفترة حواضر عدة اضطلعت بدور هام في التجارة على المسلك الغربي ومن أبرزها: تامدولت[32] وتارودانت[33] ونول[34] التي

الإسلامي، 1986)، 36-37. وقد كان لمدينة تاهرت تأثير روحي كبير في أطراف الصحراء وحتى تخوم بلاد السودان الغربي. راجع:

Tadeusz Lewicki, "L'État nord-africain de Tâhert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle," *Cahiers d'Etudes Africaines* VIII (2) (1962): 513-35.

وقد خربت تاهرت سنة 296هـ/908م من قِبل العبيديين على يد الداعية الشيعي أبي عبد الله، ولاذ الإمام الرستمي يعقوب بن أفلح بالفرار إلى المزاب حيث أسس سدراتة، راجع: رشيد بوروبية، **مدن مندثرة: تاهرت، سدراته، أشير، قلعة بني حماد** (الجزائر: وزارة الإعلام والثقافة، 1981)، 9-45.

30. سجلماسة: أسسها الخوارج الصفريون سنة 140هـ/757م، راجع: البكري، **المغرب**، 148-149. وتطرح الروايات التاريخية لتأسيس سجلماسة، حسب البكري إشكالات عديدة لبعض الباحثين. راجع بهذا الخصوص: دانييل ماك كول، **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانه**، تعريب وتعليق محمد الحمداوي (الدار البيضاء: دار الثقافة، د.ت). وترى دونيس جاك مونييه أن سجلماسة هي ثاني مدينة إسلامية تم تأسيسها ببلاد المغرب الكبير بعد تأسيس القيروان، راجع:

Denise Jacques-Meunié, *Le Maroc Saharien des Origines à 1670*, vol. I (Paris : Klincksieck, 1982), 46.

وظلت سجلماسة ملتقى لطرق القوافل طيلة العصر الذهبي للتجارة الصحراوية حتى أواخر العصر الوسيط، حيث بدأت في الاندثار نتيجة لتحول المسالك عنها نحو الشرق، وبداية مزاحمة المراسي البحرية لتجارة القوافل. وتقع معالم سجلماسة المندثرة اليوم في الريصاني الرشيدية بمنطقة تافيلالت جنوب المغرب الأقصى.

31. أغمات: ذكر البكري أنها تطلق على مدينتين تفصل بينهما ثمانية أميال، إحداهما: أغمات وريكة وبها يقيم أعيان المدينة، وينزل التجار. أما الثانية فهي أغمات إيلان، راجع: البكري، **المغرب**، 153، ويضيف الإدريسي أن أغمات إيلان مدينة صغيرة يسكن بها يهود تلك البلاد، راجع: الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 235. وقد ربطت أغمات وريكة علاقات ثقافية وروحية بحواضر غرب الصحراء. وقد ذكر صاحب **الحلل الموشية** أن المرابطين لما احتلوا أغمات وريكة تضايق أهلها منهم، وشكوا إلى الأمير أبي بكر بن عمر، فطلب منهم أن يحددوا له موضعا يبني فيه مدينة، فأشاروا إليه بموضع مراكش، فشرع الأمير وقومه الملثمون في بناء مراكش، راجع: ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979)، 15-16. ولا يخفى أن مراكش التي كانت دار ملك المرابطين ثم الموحدين قد سلبت أغمات بعض أدوارها، وإن كانت لم تقض عليها تماما إلا بعد قرون من تأسيسها.

32. تامدولت: ذكر البكري أنها مدينة سهلية من تأسيس عبد الله بن إدريس، راجع: البكري، **المغرب**، 163. وقد عرفت المدينة بمناجم النحاس.

33. تارودانت: مدينة أزلية: قديمة، عرفت من خلال الكتابات القديمة باسم (Vala)، راجع:

Jacques-Meunié, *Le Maroc Saharien*, vol. I, 276.

ولم تمنحنا المصادر العربية الوسيطة تفاصيل كثيرة عنها، راجع: **تارودانت: حاضرة سوس** (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1993)، 109-113، وكذلك: 121-134. وقد تمتعت تارودانت بروابط وعلاقات تجارية وثقافية مع منطقة غرب الصحراء على مر الحقب.

34. نول: ذكر البكري أن مدينة نول هي آخر مدن الإسلام وأول العمران من الصحراء، وهي تقع على نهر يصب في المحيط الأطلسي، راجع: البكري، **المغرب**، 161-162. وقد ذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة آهلة. راجع: الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 223-224.

كانت بمثابة محطات هامة للتزود قبل ولوج مفاوز الصحراء. ويبدو أن أزوكي[35] كانت محطة هامة على المسلك الغربي، اضطلعت بهذا الدور منذ القرن 6هـ/12م، على الأقل، إذ ذكر الإدريسي أنها أول مراقي الصحراء، ولا محيد عن عبورها لمن أراد الدخول إلى بلاد السودان.[36] في حين كانت أودغست مركزا تجاريا متقدما باتجاه الجنوب بالنسبة لتجارة الشمال، إذ كانت المبادلات تتم بينها وبين غانه وهي المركز المتقدم لبلاد السودان باتجاه الصحراء. كما ازدهرت في الفترة نفسها على المسلك الشرقي مدن مثل كوكو[37] وهي گاوه الحالية، وتادمكة.[38]

إن ظهور شبكة مدن القوافل ارتبط ارتباطا وثيقا بازدهار التجارة مع بلاد السودان عبر المسالك الصحراوية،[39] وقد أكد ريمون موني على"القرابة" والتشابه بين حواضر المغرب الصحراوي شمالا وأودغست وغانه: كومبي صالح، مؤكدا على دور التجارة في انتشار وانتقال الأنماط العمرانية وغيرها من عناصر الثقافة المادية من المغرب إلى هذه الحواضر التجارية الواقعة على تخوم بلاد السودان.[40] ولا تخفى الأدوار التي اضطلع بها التجار المغاربة بالصحراء، والتي أشارت إليها المصادر وأكدها المؤرخون[41] تجعلنا نأخذ

35. آزوكي: حاضرة دولة المرابطين بالصحراء تقع أزوكي في الشمال الغربي لموريتانيا الحالية على بعد 8 كيلومترات شمال غربي مدينة أطار، بمنطقة آدرار موريتانيا. راجع: البكري، **المغرب**، 168؛ أبو عبد الله الزهري، "كتاب الجغرافية،" تحقيق محمد حاج صادق، منشور ضمن:

Bulletin d'études orientales XXI (1968): 190.

36. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 225.

37. كوكو: في المصادر العربية تعني مدينة گاوه، وهي إحدى مدن بلاد السودان الوسيطة، تقع على نهر النيجر، ورد أول ذكر لها لدى اليعقوبي في القرن 3هـ/9م أنها من أعظم مدن السودان، راجع: أحمد بن واضح اليعقوبي، **التاريخ**، الجزء الأول، (بيروت: دار صادر، (دون تاريخ)، 193. وذكر البكري أنها مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين: التجار، راجع: البكري، **المغرب**، 183. ويرى تاديوز لويسكي إلى أنها سابقة للقرن 3هـ/9م، مرجحا ما ذهب إليه مؤرخ بلاد السودان المعاصر موريس دولافوس من أن تأسيسها يعود للقرن 1هـ/7م، راجع: Lewicki, "L'État nord-africain," 518-24.

38. تادمكة: ذكر البكري أنها مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وأنها أشبه بلاد الدنيا بمكة، وأن تادمكة تعني هيئة مكة، راجع: البكري، المغرب، 181، وهي الترجمة التي اعتبرها العبدري خاطئة، حيث يرى أن " تاد" البربرية تدل على الإشارة وليس على الهيئة، ويخلص إلى أن معنى تادمكة: هذه مكة، راجع: محمد بن محمد العبدري، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي (الرباط: جامعة محمد الخامس-وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، 1968)، 159. ورغم الأهمية التجارية لهذه المدينة في العصر الوسيط على المسلك الشرقي إلا أن إشارات المصادر إليها تكاد تكون مقتضبة. وقد ذكر ابن حوقل أن بني تاناك (البربر) هم ملوك تادمكة [...] وهم الولاة وفيهم رياسة وعلم وفقه وسياسة إلى علم بالسير واضطلاع بالأثر والخبر، راجع: ابن حوقل، **صورة الأرض**، 101-102. وقد اندثرت تادمكة وتوجد أطلالها بموقع يسمى" السوق" في منطقة آدرار إيفوغاس شمال گاوه في جمهورية مالي.

39. Maurice Lombard, "L'évolution urbaine pendant le haut moyen-âge," in *Espace et réseau du haut-moyen-âge* (Paris et La Haye: Mouton, 1972), 65.

40. Mauny, *Tableau géographique*, 389 et 490.

41. Cahen, "L'or du soudan," 174.

بعين الاعتبار ملاحظة ماسكوري (Masqueray) الشهيرة؛ ومفادها أنّ الخوارج هم عمّار الصحراء، حيث أنه لا توجد واحات في الصحراء لا يرجع الفضل في تأسيسها إلى الخوارج صفريين كانوا أم إباضيين،[42] بيد أن التأثيرات العمرانية التي حاول التجار المغاربة نقلها إلى غرب الصحراء على وجه الخصوص عبر التجارة الصحراوية اصطدمت بذهنية راسخة من البداوة والترحال السكان المحليين؛ إذ لم تكن حواضر أودغست وحتى مدينة غانه في شطرها الإسلامي الذي ازدهر على أيدي التجار المغاربة سوى تجارب عمرانية وعرضية وهشة ظهرت وازدهرت، ثم اندثرت في ذات الحقبة الوسيطة. غير أن حواضر الجيل الأول من مدن القوافل غرب الصحراء لم تكد تختفي حتى بدأ الجيل الثاني في الظهور، مُمثلا في قصور شنقيط، وولاته، وودان، وتيشيت، التي شكلت امتدادا وتواصلا مع حواضر الجيل الأول، خصوصا في مستوى الوظائف التجارية والأنماط المعمارية وطرق استغلال الفضاء شبه الحضري. وحسب ما يتضح من نتائج الحفريات الأثرية بمواقع أودغست وكومبي صالح، فإن هذه الحواضر المندثرة مارست تأثيرا بالغا في رسم الملامح العمرانية لحواضر الجيل الثاني التي مازالت قائمة.

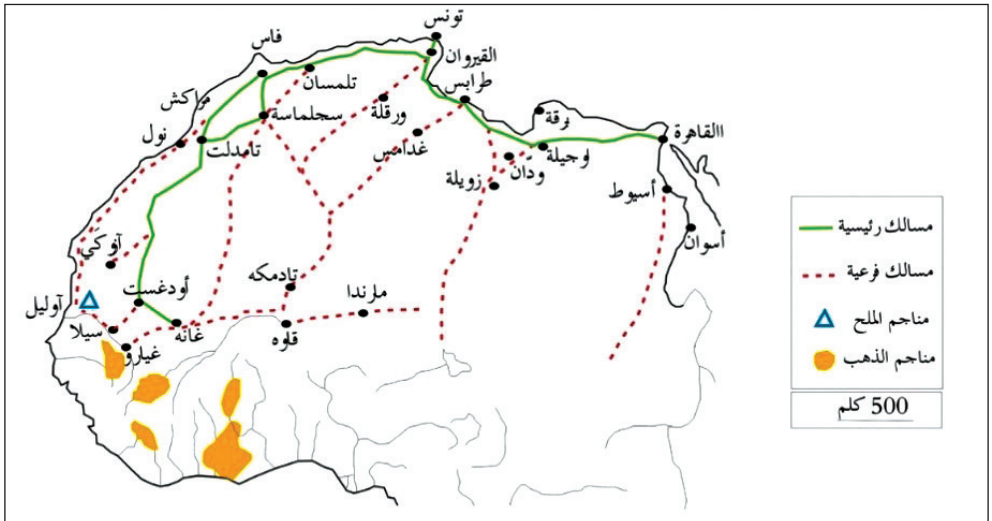

من القرن الخامس للهجرة الموافق للحادي عشر للميلاد إلى القرن السادس للهجرة الموافق للثاني عشر للميلاد

42. Masqueray, cité par: Émile-Félix Gautier, *Les siècles obscurs du Maghreb* (Paris: Payot, 1927), 297.

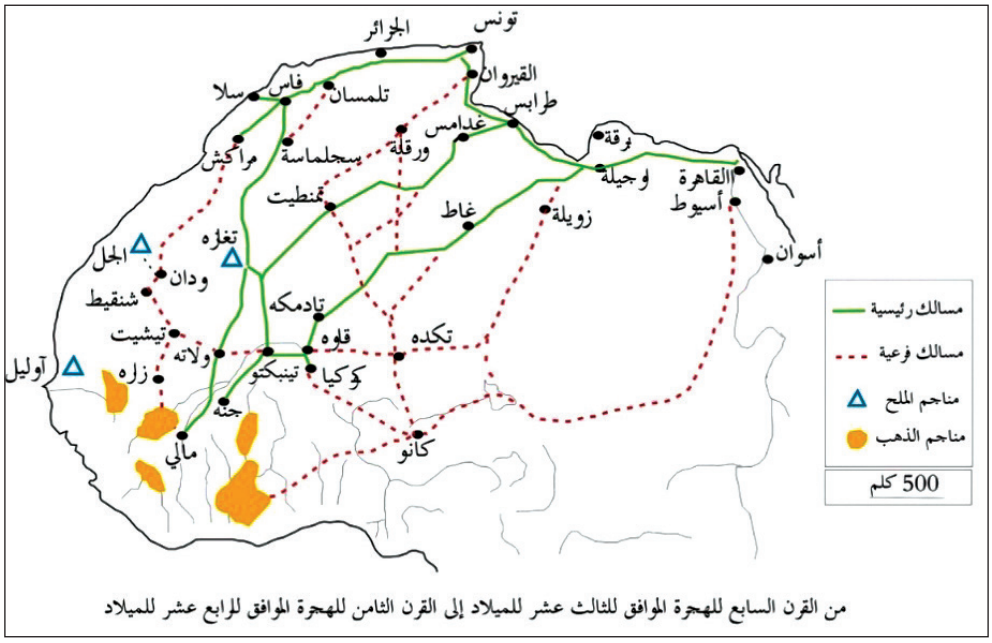

الشكل 1: خريطتين توضحان تطور الحواضر التجارية خلال الحقبة الوسيطية عبر الصحراء
نقلا عن ريمون موني، بتصرف: Mauny, *Tableau géographique*, 429-30.

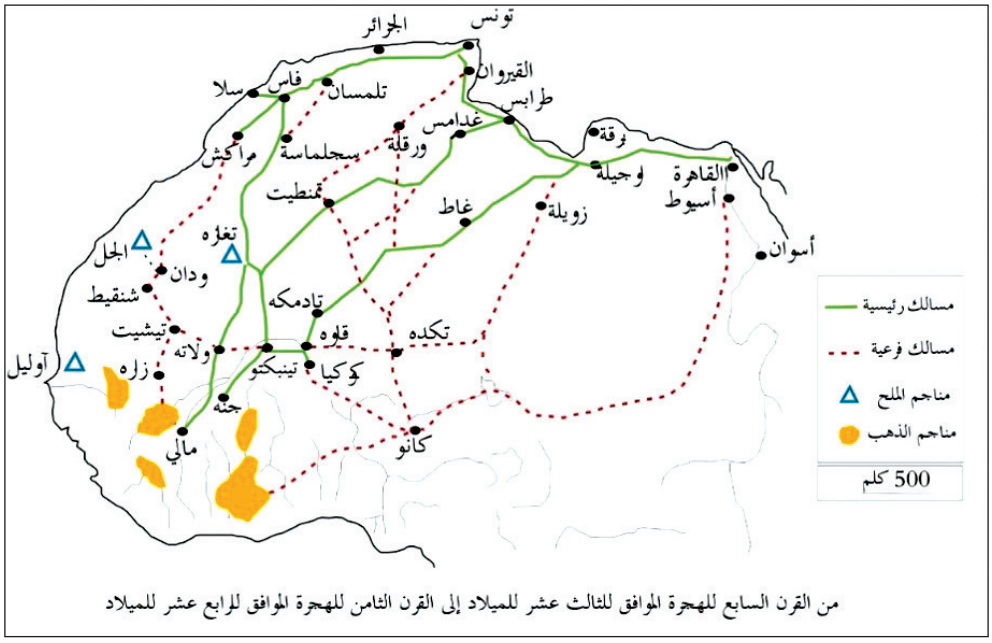

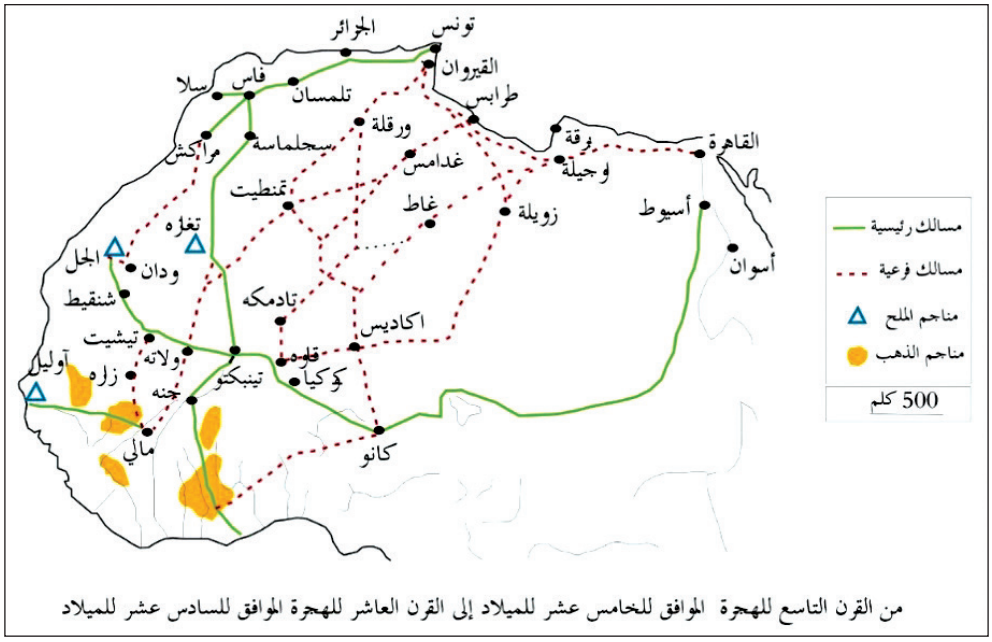

الشكل 2: خريطتين توضحان تطور الحواضر التجارية خلال الحقبة الوسيطية عبر الصحراء
نقلا عن ريمون موني، بتصرف: Mauny, *Tableau géographique*, 434-36.

2. 1. البعد الرعوي لمدن القوافل

لم تكن حواضر غرب الصحراء التجارية سوى امتداد للتقاليد "العمرانية" العتيقة التي ارتبطت بتجارة القوافل بصحراء إفريقيا منذ العصر القديم، وأيضا في الجزيرة العربية، قبل ظهور الإسلام. وإذا ألقينا نظرة متفحّصة على تاريخ مدن القوافل التجارية نجد أن البعد الرعوي- خاصة المتعلق منه بتربية الإبل - ظل يشكل ركيزة الأنشطة الإنتاجية لسكان مدن القوافل، مما يبرز تماثل ملامح الحواضر الصحراوية بوجه من الأوجه مع مدن الأمصار الإسلامية الأولى؛[43] فعند تمصير الكوفة كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه على العراق سعد بن أبي وقاص بما يلي: "إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعا عذبا، ولا تجعل بيني وبينهم بحرا،"[44] وهكذا بدت محاولات التمصير الإسلامية الأولى وكأنها تنوء بثقل التصوّر الصحراوي للاستقرار.

43. William Marçais, "L'islamisme et la vie urbaine," in *Articles et conférences* (Paris: Adrien Maisonneuve, 1961), 59-60; Georges Marçais, "L'urbanisme musulman," in *Mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman* (Alger: Imprimerie Officielle, 1957), 219-22.

44. لا يفوت المتأمل لمواقع مدن الأمصار الإسلامية الأولى بالكوفة، الفسطاط والقيروان أنها تقع على مشارف الصحراء، وأن اختيار مواضعها خضع لشرط أساسي هو قربها جميعا من السباخ لتلائم متطلبات حياة الإبل، وكأن تلك التأسيسات لم تكن بمنأى عن ثقافة الفاتحين ومتطلبات إبلهم. أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (بيروت: دار النشر للجامعيين، 1957)، 388.

لا يمكن الحديث عن ازدهار تجارة القوافل قبل تدجين الإبل التي كان وصولها إلى الجزيرة العربية مطلع الألف الأولى ق.م.[45] والواقع أن دخول الإبل إلى الصحراء شكل منعرجا هاما تاريخها، وأحدث انقلابا جذريا في نمط عيش سكانها؛ فمن المعلوم أنه قبل دخول الجمل إلى الصحراء لم يكن من المتاح للإنسان أن يترحل أو يجوب أطرافها إلا بشق الأنفس، ولذلك اعتبر تيودور مونو[46] أن الجمل هو قاهر الصحراء وفاتحها. لقد دخلت الإبل إلى الصحراء الإفريقية قادمة من بلاد فارس مرورا بشبه الجزيرة العربية عبر مصر وشمال إفريقيا نهاية حكم الإمبراطورية الرومانية،[47] إلا أنها لم تصل إلى غرب الصحراء إلا بعد عدة قرون.[48] ويبدو أن هذا الحيوان بقدرته الفائقة على التحمل والتأقلم مع أوضاع الصحراء[49] قد أحدث تحولات هامة في هذه المنطقة، إذ يرجع له الفضل في فك العزلة عنها وفتحه إمكانية الانتقال منها وإليها، وربط أطرافها المترامية، وانفتاحها على بقية العالم، ولهذا كان الجمل بحق أداة وصل حضاري وتجاري للصّحراء بالمغرب والمشرق، إذ غدا منذ دخوله "سفينة" الصحراء التي أسهمت بقسط هام في ازدهار وتطور "المراسي" الصحراوية التي شهدت نموا مطردا خلال الوسيط مع اهتمام المسلمين بالتجارة مع بلاد السودان.

ونظرا لأهمية هذا الحيوان كوسيلة نقل فاعلة بين مراسي تجارة القوافل عبر الصحراء، وانطلاقا من المقاربة الجغرافية للمدن، فإن للإبل دور هام في مدن القوافل، بالنظر إلى أن

---

45. رضا جواد الهاشمي، "تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم،" ضمن **تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر** (بغداد: الألكسو، 1984)، 10.

46. Théodore Monod, *Méharées* (Paris: Éd. Je sers, 1937; nouvelle édition, Arles: Actes Sud, 1989), 188.

47. Henri J. Hugot, *Le Sahara avant le désert* (Toulouse: Éditions des Hespérides, 1974), 294-95.

48. لا يتفق الدارسون على تاريخ دخول الإبل إلى غرب الصحراء، إذ يجعله گوتيه في حدود ما بعد 500 سنة ق.م، راجع:

Gautier, *Le Sahara*, 130-31.

بينما يرجح روبير فيرنى بالاعتماد على النقوش الصخرية أن ظهور الإبل بالغرب الصحراوي كان في حدود فجر التاريخ، راجع:

Robert Vernet, *La préhistoire de la Mauritanie* (Nouakchott: Centre Culturel Français-Sépia, 1993), 68.

49. يرى گوتيه أنه ينبغي التميز من منظور تاريخي بين مرحلتين من تاريخ الصحراء، قبل دخول الإبل وبعده، راجع: Gautier, *Le Sahara*, 133-34. لقد أحدث دخول الإبل تحولا جذريا في الحياة بالصحراء، بفعل قدرتها على التحمل والتأقلم مع مصاعب المناخ، لأنها قادرة على السير خمسة أيام دون أن ترد الماء – على أقل تقدير – بينما تصل طاقة تحمل بعضها للعطش إلى عشرين يوما، فتسمى الإبل الجوازي، وقد ذكر ابن سعيد أن أصحاب القوافل كانوا يروون الإبل من الماء تحسبا لنفاد الماء خلال عبورهم الصحراء ويجعلون على أفواهها الكمائم لئلا تأكل شيئا، فإذا نفد الماء عندهم خلال الرحلة، نحروها جملا تلو الآخر وشربوا ما في بطونها من الماء. راجع: ابن سعيد، **كتاب الجغرافية**، 113، وقد أورد ڤالانتين فيرناندیز مطلع القرن 10هـ/16م نفس الرواية حول استغلال مخزون الماء المستودع ببطون الإبل ! راجع:

Valentim Fernandes, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal* (Paris: Publications du Comité d'Etudes historiques et scientifiques de l'*Afrique* occidentale française-Larose, 1939), 75.

ويبلغ معدل سرعة الإبل المحملة بالأثقال 60كلم في اليوم، بينما تتراوح سرعة الجمل ما بين 8 إلى 10 كلم إذا كان لا يُقِلُ سوى راكبه، راجع:

Mauny, *Tableau géographique*, 393.

النقل يمثل عصب التجارة ولا يمكن أن تكتسب المدن وظيفتها التجارية في غياب وظيفة النقل،[50] بل إن هناك مدنا تطغى عليها وظيفة النقل،[51] ولذلك تكتسب الوظيفة الرعوية المتعلقة بتربية الإبل أهمية قصوى في حواضر التجارة بالصحراء عموما، باعتبارها وسيلة النقل الأكثر فاعلية في هذا المجال.

وقد لاحظ ماكسيم رودانسون[52] أن هذه الحواضر رغم أهميتها التجارية لم تعدِل عن الخيار الرعوي، فقد ظل من أهم مقومات استمرارها. وبفضل امتلاك الأنباط لثروة هائلة من الإبل، وتحكمهم المطلق في نقل بضائع القوافل التجارية بين شمال الجزيرة العربية وجنوبيها، ازدهرت حاضرتهم بترا، فتحكمت في هذه التجارة.[53] ولقد تنبّه شلومبرگير (Schlumberger) إلى أن العامل الأساسي في قوة تدمر التجارية هو قدرتها على تربية الخيول والجمال الضرورية لتنظيم القوافل التجارية وخفارتها، حيث كانت تدمر مملكة الإبل في الصحراء.[54] ومن هذه الزاوية، تبرز أهمية الوظيفة الرعوية في تجارة القوافل؛ إذ سمح امتلاك القطعان الوافرة من الإبل بانتقال مواطن عدة بالمجال الصحراوي من طور البداوة الرعوية إلى الاستقرار التجاري. ولم تشذّ أودغست الوسيطة بساكنتها الصنهاجيين الصحراويين عما عرفته بعض حواضر الصحراء في العصرين القديم والوسيط، فلقد وُصف سكان هذا الجزء من الصحراء من قِبَل الباحثين المعاصرين وحتى وقت قريب، تماما كما وصف أجدادهم الصنهاجيين الصحراويين برعاة الإبل الكبار (Les grands nomades chameliers)،[55] وهو وصف ينوء بإرث كبير من التقاليد الرعوية، التي تخلُ من ذكرها مصادر الأدب الجغرافي العربي الوسيط. لقد ذكر ابن حوقل أن أخت ملك أودغست الصنهاجي "كان عدد رعاتها مائة ومع كل راع منهم مائة وخمسون جملا،"[56] مما يعني أنها تملك 15.000 رأسا من الإبل؛ كما ذكر الإدريسي أن لأهل أودغست جمالا ومنها يتعيّشون.[57] وتبرز هذه الإشارات التي تعود لفترات مختلفة الأهمية الرعوية لأودغست حاضرة لمتونة، التي بوأتهم بفضل امتلاكهم لناصية الإبل ودرايتهم بالمسالك بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء

50. جمال حمدان، **جغرافية المدن** (القاهرة: عالم الكتب، 1977)، 46.
51. حمدان، **جغرافية المدن**، 46.
52. نقلا عن: هشام جعيط، **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993)، 193.
53. إحسان عباس، **تاريخ دولة الأنباط** (عمان: دار الشروق، 1987)، 25.
54. نقلا عن: سحّاب، **إيلاف قريش**، 71-72.
55. نجد هذا الوصف على سبيل المثال لا الحصر لدى جورج مارسي:
Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge* (Paris: Aubier, 1946), 244-45.
56. ابن حوقل، **صورة الأرض**، 98.
57. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 108.

منزلة سمحت لهم بالاضطلاع بأدوار هامة في تجارة القوافل. وقد أكد جان بولي[58] الذي قام بحفريات أثرية بأودغست أن ازدهارها حاضرة تجارية ردحا من الزمن يعتمد بالأساس على "الخدمات" التي كـان سكانها يقدمونها إلى القوافـل من وسائـل نقل وتزوّد بالإضافـة إلى خدمات الـدلالـة والخفارة.

وهكذا شكل النشاط الرعوي نقطة قوة لقبائل صنهاجة اللثام، وعلى الرغم من أن هذه القبائل لم تكن مُعمِّرة، إذ غلبت على حياتها البداوة والترحال، إلا إن امتلاكها لقطعان كبيرة من الإبل[59] منذ العصر الوسيط، ودرايتها بالمسالك الرابطة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء من خلال الطريق اللمتوني العتيق، سمح لهم بالانتقال بمجالهم البدوي من طور البداوة الرعوية إلى الاستقرار التجاري.

وهي التجربة التي استمرت بعد اندثار أودغست وحواضر الجيل الأول، إذ شكل امتلاك قطعان كبيرة من الإبل وتوظيفها في تجارة القوافل أحد أهم الأسباب لتحول قصور وتيشيت وشنقيط من نقاط تجمع صغيرة مطلع القرن السادس عشر[60] إلى محطات مهمة على مسالك القوافل[61] خلال القرن الثامن عشر، وذلك ما نستشفه من نص كتبه ابن الحاج إبراهيم[62] سنة 1205هـ/1790م الذي وصف فيه حجم قافلة أزلاي[63] المختصة بجلب الملح الصحراوي، فذكر أنها مؤلفة من اثنان وثلاثين ألف بعير! محملة بالبضاعة، خرجت ذات مرّة من شنقيط إلى تيشيت، ومنها إلى زاره ببلاد السودان. ولئن كان ريمون موني[64] يُقدر أن نقل الملح بالنظر إلى أهميته التجارية قد يُوظف آلافا مؤلفة من الإبل، فإن جان دوڤيس[65] شكك في أن ينضوي هذا العدد من الإبل ضمن قافلة واحدة، وذهب إلى مقارنتها بإشارة ابن حوقل[66] أن أخت ملك أودغست كانت تملك لوحدها ألفا خمسمائة رأسا من الإبل. بيد أننا نرى أن تلك المقارنة قد تكون حجة معاكسة لرأي جان دوڤيس؛ فمادامت ثروة امرأة

58. Jean Polet, *Tegdaoust IV: fouille d'un quartier de Tegdaoust (Mauritanie): Urbanisation, utilisation de l'espace construit* (Paris: Éditions Recherches sur les Civilisations, ADPF, 1985), 239.

59. ابن حوقل، **صورة الأرض**، 97.

60. Fernandes, *Description*, 79.

61. Pierre Bonte, "Esquisse d'une histoire foncière de l'Emirat de l'Adrar," *Annuaire de l'Afrique du Nord* XXII (1983): 325.

62. سيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قلي، نُشر هذا النص مترجما إلى الإنجليزية وملحقا ضمن:

Harry Thiriwal Norris, "The History of Shinquit, According to the Idaw Ali Tradition," *Bulletin de l'IFAN* XXIV (1962): 401.

63. تسمية أزلاي يبدو أنها من الموروث اللغوي الصنهاجي وتطلق على قافلة من الإبل مخصصة لجلب كميات كبيرة من الملح.

64. Mauny, *Tableau géographique*, 377.

65. Devisse, "*Routes de commerce*," 47.

66. ابن حوقل، **صورة الأرض**، 98.

واحدة من عِلِيّة القوم تصل إلى هذا القدر، فما باله بعدد رؤوس الإبل المؤلفة لقافلة تجارية يُفرض اشتراك جُل الأثرياء فيها. ولذلك لا نضع إشارة بن الحاج إبراهيم الآنفة الذكر موضع شكك، ففي ضوء عدم استفاضة المصادر الوسيطة حول ذكر معلومات تتعلق بمتوسط حجم رؤوس الإبل المكونة للقوافل، فإن الراجح أن العدد ظل وافرا، حيث أشار الرحالة الألماني هنري بارت[67] (الذي زار المنطقة سنة 1855م) إلى أن بعض القوافل كانت تعُد آنذاك عشرة آلاف رأس من الإبل. بيد أن التقديرات ينبغي أن تأخذ في الحسبان مفهوم الثروة بالصحراء وحواضرها؛ فمن المفارقة أنها لم تكن تقاس بحجم الملكية العقارية للأفراد بحواضر الصحراء، بل تقاس في المقام الأول بحجم امتلاك أعداد وافرة رؤوس الإبل ومن واحات النخيل. وفي هذا السياق، يرى بيير بونت[68] أنه رغم قدم تعاطي سكان غرب الصحراء للتجارة إلا أن تراكم الثروة لم يتحقق بها قبل القرن 19م.

2. مدن القوافل بين خصوصيتها وتأثير العمران الإسلامي

اتسمت حواضر الصحراء بخصوصية "عمرانية" فرعية أثرت الرصيد الحضري للإسلام؛ لقد سمح بروز شبكة من مدن القوافل التجارية، بالصحراء الإفريقية خلال الحقبة الوسيطة، بتزويد المراكز الكبرى ببلاد المغرب وشمال إفريقيا بما تحتاجه خزائن بيوت المال من ذهب بلاد السودان، وأسهمت بذلك حواضر الصحراء بدور هام في نهضة المراكز الاقتصادية والعمرانية[69] وضمن تيار المبادلات التجارية الذي نشط بين تلك المناطق. ولم تكن القوافل تحمل سلعا تجارية فحسب، بل كانت إلى جانب ذلك تنشر أفكارا وتقنيات، وعرفت حركة دؤوبة لانتقال للتجار والعلماء والفنانين والحرفيين، فعبر مؤثرات عمرانية وفنية تركت بصماتها في الحواضر بأحيائها ومعمارها وجوانب أخرى من ثقافتها، مما نتج عنه مستوى من التماثل بين مدن المراكز الإسلامية وحواضر الصحراء رغم تباين مستوى تحضر النموذجين عمرانيا.

إلا أن المقاربات التي عُنيت بالمدن الإسلامية غيّبت الإشارة إلى حواضر الصحراء، حتى في هامشيتها العمرانية مقارنة بعمران دار الإسلام! ومن النادر الإشارة إليها في الدراسات التاريخية باعتبارها ضمن أنماط المدن الإسلامية.[70] وإذا كانت بعض هذه

67. Henri Barth, Voyages *et découvertes dans l'Afrique septentrionales et centrale pendent les années 1849-1855*, traduction de l'allemand par Paul Ithier, vol. II (Paris-Bruxelles et Leipzig: Firmin Didot frères, fils et C^{ie} - A. Lacroix, Verboeckhoven et C^{ie}, éditeurs1860), 104.

68. Pierre Bonte, "Faire fortune au Sahara: permanences et rupture," *Cahiers des sciences humaines*, nouvelles série, 16 (2000): 49.

69. Yves Lacoste, *Ibn Khaldoun: naissance de l'Histoire* (Paris: Maspéro, 1966), 110-18; Lethieleux, *Ouargla*, 37, note 4.

70. Lombard, "L'évolution urbaine," 65.

الدراسات الاستشرافية في اجتماعيات الثقافة قد نعتت مدن الأمصار الإسلامية الأولى بالعفوية، اعتمادا على أنها كانت في البدء معسكرات تحولت إلى مواطن استقرار يغيب فيها التصميم العمراني المسبق، وخلصت إلى أن المدينة المنشأة تعد استثناء في تاريخ الإسلام، وهي حسب هذا الطرح إن وجدت فإنها غالبا ما ترتبط بأسرة حاكمة: مدينة أميرية.[71] وقد أسالت هذه المقاربات في جانبها المتعلق بسمة العفوية كثيرا من الحبر، وخضعت للنقد والدحض في أبحاث لاحقة،[72] إلا أن السمة العفوية ربما قد تناسب حواضر الصحراء، أكثر من مدن الأمصار الإسلامية؛ ذلك أنها نشأت بصورة عفوية على محطات مسالك القوافل، إضافة إلى أن إعمارها تم عن طريق التجار المستوطنين إلى جانب سكانها الأصليين وجلهم من أنصاف الرحل شبه المستقرين. وعلى الرغم من الفوارق البيّنة بين مدن المراكز وحواضر الأطراف الصحراوية، فإن ذلك لا يخوّل إقصاء حواضر الصحراء من حظيرة المدن الموسومة بالإسلامية ضمن المقاربات التي أنجزت في هذا المبحث، بالنظر إلى أنها أثرت الرصيد العمراني للإسلام.

2. 2. أوجه التماثل والاختلاف مع العمران الإسلامي

من الصعب قياس مختلف هذه الأوجه بجل حواضر الصحراء، بحكم أن مواقعها لا تتمتع بامتيازات مناخية تذكر، كما أنها لا تستجيب لكل الشروط والامتيازات المتعارف عليها لقيام المدن الإسلامية الوسيطة، وهي خمسة شروط حسب ابن أبي زرع:[73] 1. النهر الجاري 2. المحرث الطيّب 3. المحطب القريب 4. السور الحصين، 5. السلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سلبها وكف جبابرتها. ولا يخفى أن معظم مدن القوافل تفتقد لوجود سلطة سياسية، مع أنه شرط أساسي، وإن كان وجودها تاريخيا في سجلماسة، وأودغست[74] وزويلة[75] مجرد استثناءات تعززت بحكم وظائفها كملتقيات لطرق القوافل التجارية، بيد أن القاعدة العامة بحواضر الصحراء أنها ظلت تحكم – في الغالب الأعم – بواسطة "نظام المشيخة." ومن الواضح أن غياب عامل السلطة السياسية يعد عاملا جوهريا أدى إلى غياب تشييد منشآت ومعالم فخمة ذات شأن، وهو أحد تجليات غياب السلطة. ولذات السبب قد تغيب عن النسيج العمراني ببعض حواضر الصحراء منشآت أخرى مألوفة ضمن مكونات

71. Georges Marçais, "La conception des villes dans l'Islam," *Revue d'Alger* II (1945): 517-33; Edmond Pauty, "Villes spontanées et villes créées en Islam," *Les annales de l'institut d'études orientales d'Alger* IX (1951): 52-72.

72. أنجزت أعمال كثيرة انتقدت هذا الطرح لعل أبرزها أطروحة: جعيط، **الكوفة**، 150-158.

73. أبو الحسن ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور، 1972)، 33.

74. البكري، **المغرب**، 148-149، 159.

75. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 115-116.

العمران الإسلامي،[76] مثل الأسواق المشيدة والحمامات، والأسوار! غير أن ذلك كله لا يجعل حواضر الصحراء هذه تخلُ كليا من بعض خصائص المدن الإسلامية ومميزاتها، بالنظر إلى حضور عدد من أوجه التماثل الأخرى بينهما.

أ. أوجه التماثل

بغض النظر عن الاختلافات الجوهرية بينهما، يمكن رصد مستوى من التماثل بين حواضر الصحراء والمدن الإسلامية الأولى، خصوصا في بداية أطوارها، في مستوى مراعاة اختيار مواضع تصلح لتربية الإبل فيهما، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله كما هو وارد في الهامش أسفله.[77] ففي الملامح الصحراوية المشتركة بين مواضع حواضر الصحراء والمدن العربية الإسلامية الأولى تبرز أوجه تماثل ولا غرو، فقد تأسس البعد الحضاري للإسلام منذ البداية على التحالف والتكامل بين المستقرين والبداة الرّحل.[78] ويبدو أن هذه الثنائية في الإسلام المبكر قد طبعت المدن الإسلامية الأولى بمسحة مزدوجة، حملت رواسب التقاليد الحضرية العتيقة ممزوجة بالمؤثرات التي انتقلت من المراكز العمرانية الإسلامية. ويبدو أن ابن خلدون[79] قد انتبه للنقلة من نموذج مدن القوافل إلى مدن الأمصار الإسلامية، فذكر أن خراب الحيرة كان إثر تأسيس الكوفة، ولعله يشير بذلك ضمنيا إلى نقلة نوعية في التاريخ الحضري أحدثها الإسلام بتلك المنطقة، وتتمثل في التحول من نمط التقاليد العتيقة السابقة للإسلام والمرتبطة بتجارة القوافل، إلى نمط مدن الأمصار الإسلامية، وهي نقلة التي لم تحدث قطيعة كاملة مع إرث مدن القوافل العتيقة، بل حافظت على ملامح منه، لعل من أكثرها وضوحا أن موقع المدن الإسلامية الأولى كانت على مشارف الصحراء، مع مراعاتها في اختيار الموقع وبدرجة أولى ما يصلح للإبل.[80] ولئن كانت سيرورة التمدن الإسلامي لم تقف عند هذا الحد، بل شهدت تطورا وتحولا لاحقا، بظهور مدن أميرية، مع اتجاه المسلمين أحيانا نحو إعادة إعمار مدن قديمة مثل دمشق، أو لمواقع قريبة من مدن قديمة كما هو شأن تونس مثلا، في حين ظل "التمدن الصحراوي" – إن صح التعبير – يراوح مكانه في مرحلة

76. Marçais, "L'islamisme," 65.

77. "أنّ العرب الأوّل في الإسلام لم يراعوا في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح، ولم يراعوا فيها الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية." عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد الأول (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1973)، 620.

78. Xavier de Planhol, *Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam* (Paris: Flammarion, 1968), 27; Henri Terrasse, "Citadins et grands nomades dans l'Histoire de l'Islam," *Studia Islamica* XXIX (1969): 7.

79. ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد الثاني، 562.

80. البلاذري، **فتوح البلدان**، 388؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد الأول، 620.

مبكرة، بفعل معوقات مناخية وحضارية، وإن كنا نشهد اليوم تذليلا لهذه المعوقات في بعض مناطق الصحراء.[81] ولا يخفى أن عدم تطور الأنماط العمرانية بالصحراء قد كرّس المنزلة الهامشية لهذه الحواضر، على الرغم من أهميتها التجارية في العصر الوسيط وصولا إلى العصر الحديث.

وعموما، تستجيب حواضر الصحراء لبعض ثوابت المدينة الإسلامية من حيث مركزيّة الجامع[82] وسط النسيج العمراني للمدن الإسلامية، ويضم إلى جانبه الساحة والسوق تتخللهما ممرّات ضيقة مع انتظام المساكن حسب نظام الخطط.

الخطط السكنية

مَثّلت الخطط السكنية عنصرا مميزا للاجتماع البشري بالحواضر الإسلامية الأولى وأيضا بحواضر الصحراء، بالنظر إلى انتظام القبائل الآهلة لها تبعا لانتماءاتهم القبلية ضمن خطط أو أحياء معلومة، إذ اقتضى تعدد القبائل الآهلة للمدن والحواضر وجود خطة لكل قبيلة، ورغم أننا لم نقف من خلال المصادر المحلية على تاريخ دخول العمل بترتيب الخطط. ففي أودغست من حواضر الجيل الأول ارتبط ذكر الخطط بها بجاليات التجار المغاربة الوافدين،[83] وكانوا يسكنون حسب انتمائهم، (...) فمن أهل إفريقية ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة،[84] وكانت تقيم في تينبكتو جاليات من تجار المغرب الصحراوي: فرانين ووجليين وتواتيين وولاتيين وودانيين.[85] وحسب ذات المصدر، فإن هذه الجاليات كانت تقيم في خطط تحمل اسم المدينة التي جاؤوا منها أو القبيلة أو الإقليم الذي ينتمون إليه.

وتكاد تخلُ المؤلفات الشنقيطية من إشارات تتعلق بوجود خطط في شنقيط وولاته وودان وتيشيت من حواضر الجيل الثاني؛ وإن كان ابن بطوطة[86] قد أشار بهذا الخصوص إلى وجود تجار مغاربة بولاته، إلا أنه ذكر أن أولئك التجار كانوا يكترون دورا للإقامة، مما قد يستشف منه أنهم لم يكونوا ينتظمون في خطط حقيقية. مع أننا لم نقف على ذكر لوجود الفنادق بحواضر الصحراء غربا.

81. إثر الطفرة التي تحققت بفضل النفط لدول الخليج العربي تحولت بعض الحواضر بصحراء الجزيرة العربية إلى مدن كبيرة.

82. منيرة الرمادي،" تاريخ المدن الإسلامية الأولى،" ضمن **الفن العربي الإسلامي**، الجزء الثاني (تونس: الألكسو، 1995)، 13.

83. البكري، **المغرب**، 158.

84. **نفسه**.

85. عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، تحقيق وترجمة هوداس (باريس: النص العربي 326 صفحة + الترجمة الفرنسية، 540 صفحة.

(Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient : Adrien Maisonneuve 1981), 169.

86. محمد بن عبد الله ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1958)، 194.

الرحاب

نقف حائرين أمام تناسي الباحثة أوديت دي بيگادو[87] لدور الرحاب، عندما لاحظت أن حواضر الصحراء بموريتانيا لم تعرف نظيرا للساحة بقرى إفريقيا السوداء، ويُظهر مخطط حفريات موقع كومبي صالح التي قام بها بول توماسي وريمون موني[88] بمستوطنة تجارية شيدها مغاربة بمدينة غانه الوسيطة، وجود نواة مركزية وسط المنطقة الأثرية تتفرع منها ثلاث طرق غير مستقيمة تماما، ذات اتجاه شرق غرب، تفضي إلى ساحة كبيرة وسط السوق المركزية على حافة الشارع الرئيسي حيث كانت تصطف المحلات التجارية على امتداده بمحاذاة السوق. ولعل تلك الساحة كانت مكانا لإفراغ حمولة القوافل والتموين وشحن البضاعة.

كما عرفت حواضر شنقيط، ولاته وودان وتيشيت وجود ساحات صغيرة ضمن نسيجها الحضري سُميّت بالرحاب،[89] وإن كان تيودور مونو[90] اعتبر أن الآبار التي يرتادها الرحل والعابرون بهذه المحطات الصحراوية، يمكن أن تضطلع بدور مشابه لدور الساحة العمومية في المدن المتحضرة، باعتبار أنها ملتقيات طرق الصحراء، وهذا ما قد ينطبق على رحبة البئر بولاته، التي كانت مكانا لالتقاء[91] العابرين والمسافرين عبر الصحراء.

وبغض النظر عن رحبة البئر، فإن وجود الرحاب بحواضر غرب الصحراء شكلت استثناء لاستغلال الفضاء بالمجال البدوي، ولعل الوظيفة الأصلية للرحبة كونها في الأصل ساحة لإناخة الإبل تحط بها القوافل رحالها. ويبدو لنا أن وظيفة الرحاب في هذه الحواضر قد تشترك في ذات الجذور مع الوظيفة الأصلية لساحة الفناء بمراكش، على افتراض أن أنصاف الرُّحل الصنهاجين استلهموها من إرث بدوي مشترك ضارب في القدم، ربما، هو ذاته الذي استمدت منه الرحبة والفناء. ويربط هشام جعيط[92] بين دور الأفنية (جمع فناء) والرحاب بالصحراء، إلا أنه يؤرخ لظهور الرحبة بالمدن الإسلامية الأولى خلال القرنين الأول والثاني، بظهور رحاب المساجد[93] ويرجع أصولها في المدن الإسلامية الأولى

87. Odette Du Puigadeau, *Tagant* (Paris: Julliard, 1949), 61.

88. Mauny, *Tableau géographique*, 384 et 482; Paul Thomassy, et Raymond Mauny, "Campagne de fouille à Koumbi saleh 1951," *Bull. de l'IFAN*, Série B, Tome XVIII, (1956): 138.

89. إن التسمية العربية لهذه الساحات بالرحاب تُمثل مؤشرا لانتقالها من التراث العربي-الإسلامي بالنظر إلى أن جل التسميات مستمدة من اللسان الصنهاجي.

90. Monod, *Méharées*, 199.

91. Benoît Pinchon, "Walata à la marge de la Mauritanie" (Mémoire de maîtrise en géographie, Université de Rouen, 1996), 26.

92. جعيط، **الكوفة**، 310.

93. **نفسه**، 106-107.

إلى التأثيرات الوافدة من اليمن[94] معتبرا أن الرحاب تشكل ظاهرة مدنية، والرحاب حسب تعريفه[95] تُمثل خلاء مفتوحا انفتاحا كاملا، يُذَكر بالساحة العامة (الأگورا)، "Agora" عند اليونان،[96] معتبرا في هذا السياق أن الرحاب لها وظائف تجارية بالمدن الإسلامية الأولى.

فضاءات عامة

مهما كان تواضع الأماكن العمومية بحواضر الصحراء، إلا أنها تبقى من العناصر التي تسجل استثناء في استغلالها للفضاء مقارنة بسياق المجال البدوي، وتعكس تمثلا مغايرا؛ فوجود أماكن عامة مثل الرحاب والسقائف والمصاطب العمومية (آبنابه) يشكل – من وجهة نظرنا – مستوى من الاجتماع شبه الحضري جسّدته منشآت عمومية مادية، وبعض النظر عن الدور الاجتماعي لهذه الفضاءات في الترفيه والمرح، إلا أنها لعبت أدوارا أخرى، فكانت تستقطب التلاميذ أحيانا لمذاكرة دروسهم، وذلك عندما اضطلعت حواضر الجيل الثاني بالصحراء في وقت متأخر من القرن الثامن عشر الميلادي بأدوار تعليمية.

الممرات والطرق

لا تختلف الطرق والممرات في حواضر غرب الصحراء[97] عن المدن الإسلامية، فهي غير متسعة، وقد علّل بعض الدارسين[98] ضيق الشوارع بأنه يحد من مجال نفوذ الشمس وأشعتها الحارقة إلى الممرات لحماية المارة من حرارتها. وقد لاحظ روبير برانشڤيک[99] أنّ المساكن في المدن الإسلامية تتوسع على حساب الشارع العام. ولا تشكل حواضر الصحراء استثناء لهذه القاعدة، فقد كانت ممراتها ضيقة وغير مغطاة في الغالب الأعم على منوال ما هو سائد في المدن الإسلامية العتيقة. وتعتبر حاضرة غدامس بليبيا استثناء من بين حواضر الصحراء إذ كانت تتمتع بممّرات مغطاة[100] قبل أن تحل بها نقمة النفط التي جنت على تراث هذه الحاضرة بتجديده وطمس أجزاء كبيرة منها.

---

94. **نفسه**، 299.

95. **نفسه**، 107.

96. **نفسه**، 107.

97. Jean Devisse, "Stratigraphie et architecture," in *Tegdaoust III: Recherches sur Aoudaghost. Campagnes 1960-65. Enquête générales* Jean Devisse, Denise Robert-Chaleix et Serge Robert, (Paris: Éd. Recherches sur les Civilisations, 1983), 66.

98. مصطفى عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية** (بغداد: دار الرشيد، 1982)، 228-229؛ جعيط، **الكوفة**، 163.

99. Robert Brunschvig, "Urbanisme médiéval et droit musulman," *Revue des études islamiques* XV (1947): 154.

100. Attilio Gaudio, *Le Sahara des africains* (Paris: Julliard, 1960), 157.

التحصين والأسوار

من نافلة القول إن التحصين ورثته المدن الإسلامية عن حضارات أخرى،[101] ويأخذ تحصين المدن أشكالا عديدة، إما عبر إحاطة المدينة بسور أو بخندق أو بوجود المدينة في مكان وعر على هضبة، أو باستدارة لبحر أو نهر.[102] ويتراوح التحصين بين الحضور والغياب في حواضر الصحراء، حيث كانت تحيط سجلماسة أسوار من طوب وحجارة،[103] وبينما وفّر الموقع الجغرافي لأودغست بين جبلين نوعا من التحصين. وقد ذكر البكري[104] حصنا بحاضرة أزوكي التي يوفر موقعها تحصينا طبيعيا. كما ذكر ابن حوقل أن قسطيلية كانت مدينة كبيرة عليها سور حصين.[105] وقد لحقت المؤثرات الحضارية الفينيقية والرومانية غدامس منذ العصر القديم، فكانت مدينة مسوّرة،[106] وإن البكري[107] قد ذكر أنّ زويلة مدينة غير مسوّرة.

ويبدو أن التهديدات الأمنية المتكررة والناتجة عن تعاطي نمط عيش يكاد يكون قائما على الغزو لدى بعض المحاربين "بالبلاد السائبة" غرب الصحراء، مثلت أحد العوامل التاريخية التي أسهمت في منح مسألة تحصين حواضر الجيل الثاني، مثل شنقيط وولاته وودان وتيشيت، أهمية ضمن بعض النصوص المحلية المستمدة من الروايات الشفهية، التي تتواتر على أن هذه حواضر كانت جميعها محصنة، رغم عدم وجود أدلة أثرية تثبت ذلك، ورغم ما تثيره هذه المسألة من تناقض. غير أن بعض العناصر تبعث إلى الاعتقاد أن مسألة الأمن كانت حاضرة بقوة في تاريخ هذه الحواضر الصحراوية، مما يستدعي فحص بعض الروايات التي تحدثت عن التحصين؛ فابن حبت[108] ذكر أن مؤسسي شنقيط "(...) بنوا على القرية سورا متسعا له بابان مغربا ومشرقا." وتتحدث بعض الروايات المحلية[109] بولاته عن أن الحاضرة كانت لها ستة أبواب تغلق ليلا، كما تُشير بعض الروايات الشفهية[110] إلى أن تيشيت كان عليها سور وبابين أحدهما جنوبها والآخر شرقها. ويسوق محمد ولد مولود[111] إشارة مفادها أن تيشيت كانت محصنة ولها بابين إسم أحدهما البرني (معناه بلسان أزير باب الزوار)، كما أشارت أوديت دي بيگادو[112] إلى وجود باب آخر

101. الموسوي، **العوامل التاريخية**، 219-220.
102. ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد الأول، 617.
103. البكري، **المغرب**، 148، 163.
104. البكري، **المغرب**، 167.
105. ابن حوقل، **صورة الأرض**، 92.
106. Gaudio, *Le Sahara*, 157.
107. البكري، **المغرب**، 10.
108. أحمد ابن حبت، **تاريخ ابن حبت**، مخطوط، نسخة عبد الرحيم ولد الحنشي، 19.
109. مقابلة مع السيد أباتي ولد أمبويه، 68 سنة، المحاجيب، ولاته، 2003/03/26.
110. مقابلة مع السيد داده ولد إيدّ، الطلبه، 86 سنة، تيشيت، 2003/01/27.
111. Mohamed Ould Maouloud, "Tichitt avant le déclin," (Thèse de doctorat en histoire, Université de Paris I, Panthéon-Sorbonne, Paris, 1998), 341, note 328.
112. Odette du Puigadeau, "Arts et coutumes des maures II," *Hespéris-Tamuda* IX (1968) : 337.

بتيشيت يدعى باب الجمالين، مشيرة إلى أنه كان أكثر الأبواب ارتفاعا، وكأنها تؤكد في هذا الصدد فكرة تسوير تيشيت، التي أشارت إليها باحثة أخرى[113] ذكرت فيها أنها بقايا أسوار يمكن مشاهدتها جنوب الحاضرة، وأن أحد أهم البابين المحيطين بالحاضرة يسمى السبوري كانت تدخل منه القوافل. وتريأن طريقة تشييد تيشيت التي تتجلى من خلال ارتفاع المساكن، وتلاصقها جنب بعضها البعض جعل الحاضرة تظهر فعلا وكأنها محاطة بأسوار.[114]

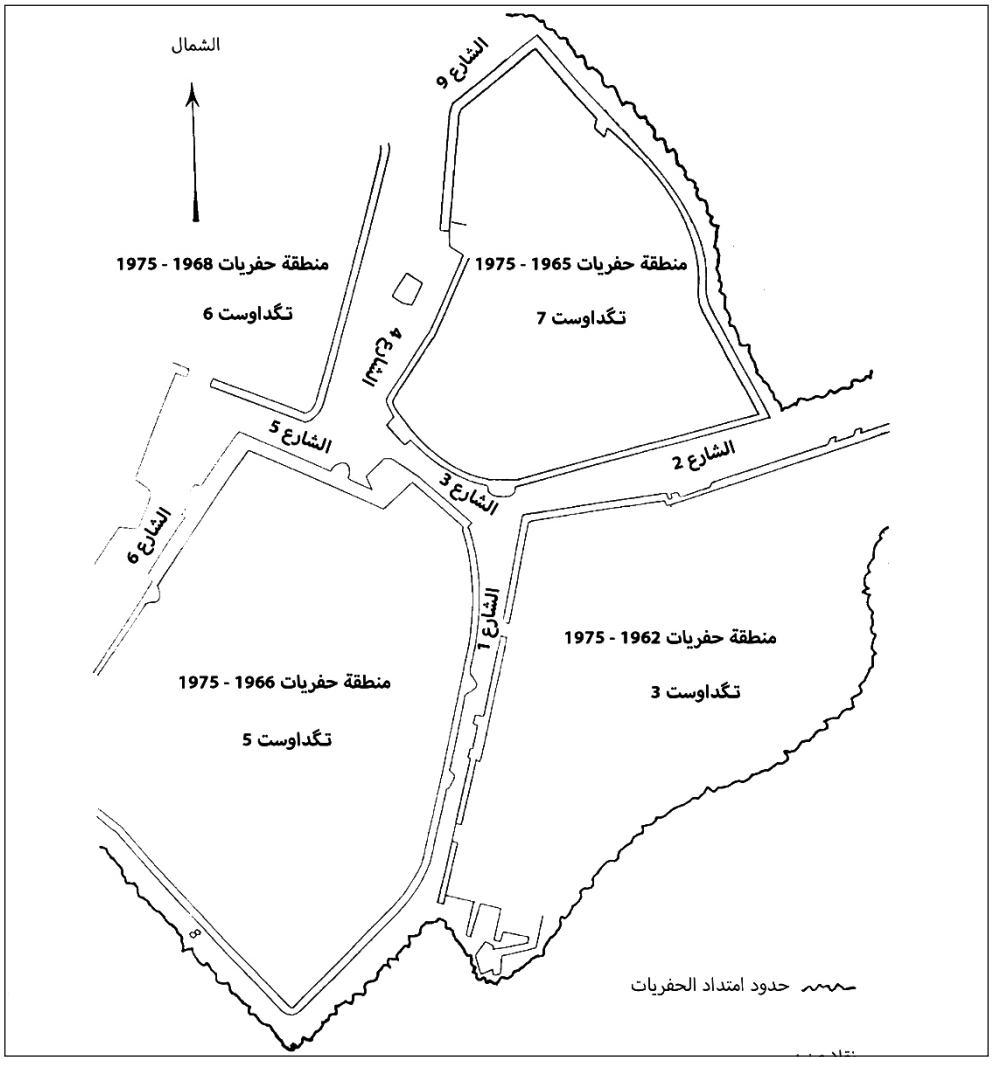

الشكل 3: نظام الطرقات بموقع تگداوست (أودغست).

Devisse, Robert-Chaleix et Robert, Tegdaoust III, 65, d'après un plan dessiné par Denise Robert.

113. Marie-Paule Hugot-Buffet, *Tichitt: Mauritanie Sud-est* (Paris: Ministère de la coopération, 1977), 35.

114. Hugot-Buffet, *Tichitt*, 35.

والواقع أن تحصين هذه الحواضر يصعب التأكد منه في غياب أدلة أثرية، ولعل ودان الوحيدة من بينها التي توجد شواهد أثرية بارزة من أسواره رغم تضارب النصوص حول مسألة تحصينه، لدى بعض المصادر الأوروبية؛ فالمستكشف البرتغالي آزيرار[115] الذي عبر من المنطقة سنة 1453 ذكر أنه لا توجد حاضرة مسورة بهذا البلد باستثناء ودان. غير أن مارمول[116] الذي شارك ضمن حملة مغربية وصلت إلى ودان سنة 1543 ذكر أن الحاضرة ليست لها أسوار، ولنا أن نتساءل عن مرد هذا التضارب بين النفي والإثبات بخصوص تسوير حاضرة ودان!

ب. أوجه الاختلاف

لعل أبرز أوجه الاختلاف بينهما أن حواضر الصحراء لا تستجيب لأهم الشروط والامتيازات المتعارف عليها لاختيار مواضع المدن الإسلامية الوسيطة؛[117] إذ لا وجود للنهر الجاري ولا المحرث الطيّب، ولا للسور الحصين، بالنظر إلى أنها لا تتمتع بامتيازات مناخية تذكر، كما يغيب شرط السلطان الحاكم في جل حواضر الصحراء التي تخضع لسلطة أهلية: جماعة حل وعقد. وقد لا تستجيب إلا للشروط المتعلقة بوجود الماء بالموقع مع مراعاة وجود الخامات الموظفة في البناء.

بينما تتباين استجابة حواضر الصحراء لبعض المؤثرات الحضارية الوافدة مثلا من الحضارة الساسانية[118] إلى المدن الإسلامية مثل الحمامات التي يقتصر وجودها فقط على حواضر الصحراء على الضفة الشمالية،[119] بينما لا توجد في حواضر الضفة الجنوبية للصحراء المعزولة نسبيا. وبالعودة إلى ابن خلدون[120] نجد أن الحمامات (إنما توجد في الأمصار المتحضرة المستبحرة في العمران، لما يدعو إليه الترف والغنى والتنعّم، ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة). ولا يخفى أن دخول الحمامات ضمن النسيج العمراني للمدن الإسلامية ينبع من عناية الإسلام بالطهارة.

115. Gomes-Ennes Azurara, *Les chroniques* (Paris: Éd. Duchartre, 1934), 172.

116. مارمول، كربخال، **إفريقيا**، تعريب محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق وأحمد بن جلون، الجزء 3 (الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1989)، 142.

117. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، 33.

118. Marçais, "L'islamisme," 65-6.

جعيط، **الكوفة**، 295.

119. البكري، **المغرب**، 163.

120. ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد الأول، 672.

الأسواق

بيد أننا نلمس وجه اختلاف بارز في حواضر الصحراء مقارنة بأسواق المدن الإسلامية الأولى، إذ لم تكن أسواق حواضر منطقة غرب الصحراء سوى من خلال ساحات أو أفنية تُناخ بها الإبل، وتحط بها القوافل لعرض البضاعة وتباع بها الدواب. ويبدو أن الوظيفة التجارية لمدن القوافل لم تضف شكلا مغايرا للسوق بهذه الحواضر؛ فالسوق كان عبارة عن ساحة كبيرة غالبا ما تكون قريبة من الجامع، يرجّح أنها تشبه أسواق التجارة وأماكنها في المراحل الأولى من تاريخ المدن الإسلامية الأولى بالكوفة والبصرة. إذ لم تكن أسواق الكناسة والمربد بالمدينتين، سوى فضاءات واسعة للتجارة وإناخة الإبل وتفريغ البضائع وشحنها،[121] وربما هو التصور الحالي نفسه بالنسبة لساحة جامع الفنا بمدينة مراكش، التي ترتبط تاريخيا بنمط بتأسيس المدينة في القرن 5هـ/11م من قِبَل المرابطين الصحراويين. وتبدو هذه الساحة فضاء للاجتماع ومكانا للتسلية وسوقا إفريقية بما فيها من دلالة؛ لا تراتب فيها للسلع ولا للمهن والاختصاصات، خلافا للسوق في المدن الإسلامية الراسخة في العمران التي تقوم على تراتب اختصاصات السوق، حيث توجد محلات السلع النبيلة قريبا من الجامع، مثل باعة الكتب الوراقين والعطارين. ويرجح ريمون موني[122] أن الأسواق في غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط كانت مصنّفة ومتخصّصة على منوال أسواق شمال إفريقيا! وأن التجار كانوا يتكتّلون في الأسواق حسب مواطنهم الأصلية.

ومن الواضح أن حواضر الصحراء، ليست على المستوى نفسه في الاستجابة لبعض التأثيرات الحضارية المتأتية من خضوعها للتأثر بـ"عدوى" الإصابة بمؤثرات حضارية قريبة ومجاورة، مثل تأثير حضارات المتوسط القديمة بالنسبة لحالة غدامس، والتي نلمس تأثيرها في الأسواق المغطاة والتحصين. كما لا يخفى تأثير روابط سجلماسة مع جوارها مدن شمال المغرب مثلا. في حين تستعصي الاستجابة لبعض التأثيرات الحضارية بالنسبة لحواضر غرب الصحراء المعزولة نسبيا، فيما يتعلق بالتحصين وعدم وجود الحمامات، لتعكس بذلك نمط العمران الصحراوي ربما الأكثر صفاء وأصالة، رغم تماثله مع بعض خصائص المدن الإسلامية ومميزاتها.

3. ملامح الخراب بحواضر الصحراء

لا يمكن لدارس حواضر الصحراء أن يتغاضى عن حجم الخراب ضمن نسيجها العمراني، فمشهد الخراب وإن كان يُمثل حالة شبه مألوفة عند الأهالي، إلا أنه استرعى

121. الموسوي، **العوامل التاريخية**، 337؛ جعيط، **الكوفة**، 290.

122. Mauny, *Tableau géographique*, 335.

انتباه جل الدارسين، فقد لاحظ روبير كابو راي[123] منذ مطلع القرن العشرين أن منظر حواضر الصحراء توحي للزائر من أول وهلة بانطباع عن حالة خراب تُشكل جزءا لا يتجزأ من ملامحها! حيث لا يمكن التمييز معها - حسب رأيه - بين الأحياء المهجورة وتلك المأهولة ضمن التجمعات السكنية. وفعلا فإن الخراب يُمثل سِمة بارزة لبعض من حواضر المغرب الصحراوي وقصوره؛ إذ نجده بوادي المزاب[124] وأيضا بقصور توات،[125] ولذلك فإن قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط لا تُمثل استثناء لهيمنة مشهد الخراب على النسيج الحضري. لقد أشار ريمون موني[126] إلى أن أكثر من نصف قصر ودان كان خرابا عند زيارته للموقع سنة 1953 وإن كان مشهد الخراب على امتداد حي ترقبيات القديم بودان يُعد من أكثر المظاهر التي تسترعي انتباه الزائر، مقارنة بما وصل إلينا من إرث معماري بقصور موريتانيا. إذ أن بقايا البناء بودان المتصاعد مع الهضبة التي تقع عليها هذه الحاضرة توحي بآثار مهمة لحضارة عمرانية مازال رسمها شامخا.[127] وفي تيشيت لاحظ تيودور مونو[128] أن ثلاثة أرباع هذه الحاضرة كانت خرابا سنة 1947، بيد أنه في مطلع السبعينيات لم يكن عدد المساكن المأهولة يتجاوز مائة وسبعين دارا[129] لم تندثر بتيشيت. كما أن شنقيط لم تكن بمنأى عن مظاهر الخراب، إذ زاد زحف الرمال من وطأة محاصرة الحي القديم، في حين تبدو ولاته اليوم[130] من أقل هذه القصور حضورا لمظاهر الخراب (تغشيات) الذي يتخلل نسيجها العمراني، حيث قدّر أحد الجغرافيين[131] حجمه بـــ 21٪ من جملة عمران الحي العتيق بولاته.

123. Capot-Rey, *Le Sahara français*,229 .

124. Marcel Mercier, *La civilisation urbaine du Mzab* (Alger: Éditions P. & G. Soubiron, 1932), 309.

125. Jean-Claude Echallier, "Sur quelques détails d'architecture du Sahara occidental," *Le Saharien* 42 (2) (1966): 42.

126. Raymond Mauny, "Notes d'histoire et d'archéologie sur Azougui, Chinguetti et Ouadane," *Bulletin de l'IFAN* XVII (1-2) (1955): 152.

127. Patrick Dujarric, *Vie et architecture Mauritanienne de l'Adrar* (Nouakchott: IMRS/CCF, 1989), 37.

128. Théodore Monod, "Sur quelques constructions anciennes au Sahara occidental," *Bulletin de la société géographie et d'archéologie d'Oran* 71 (1948): 15.

129. Jean Hansen, *Vie d'un village isolé du Sahara mauritanien* (Nouakchott: Centre Culturel A. de Saint-Exupéry, 1971), 34.

130. يبدو أن شغف المعماري الأسباني خوزي كورال بنمط ولاته المعماري، ومصدره عمله القيم حول المعمار في مدن القوافل غرب الصحراء:

José Corral, *Ciudades de las caravanas; alarifes del Islam en el desierto* (Madrid: Edit. Hermann Blume, 1985).

هذا العمل والسر فيما بذلته بعثة التعاون الإسباني منذ ثمانينيات وتسعينيات القرن المنقضي في ترميم أجزاء كبيرة مظاهر الخراب بهذه الحاضرة، ويعد هذا التدخل المدروس في نظري محددا أساسيا في تدني النسبة المئوية للخراب المذكورة أعلاه بهذه الحاضرة مقارنة بباقي حواضر موريتانيا الأخرى.

131. Pinchon, "Walata," 7.

ومع تواتر مشهد الخراب بحواضر الصحراء، خَلُص الباحث عبد الودود ولد الشيخ إلى عقد جدلية بين مشهدي الخراب والعمران بقوله الوارد في الهامش أسفله.[132] ولعل في هذه القراءة النبيهة لمشهد الخراب ما قد يُفسر ملاحظة أوديت دي بيگادو،[133] ومفادها أن فكرة الترميم تكاد تكون غائبة بالنسبة لعمارة حواضر غرب الصحراء. والواقع أن هذه الوضعية يمكن إرجاعها إلى عوامل متعددة بعضها بفعل تعدد الورثاء الذين تؤل إليهم ملكية عقارات تتحول مع الزمن إلى الخراب ومع عدم اتفاقهم على من ينتفع بها منهم، ولذلك تتشعب المشاكل المترتبة عن تعدد الملكية جيلا بعد جيل. كما يمكن تفسير طغيان مشهد الخراب اليوم وبعد مضي زمن طويل على هجران تلك البيوت الخراب على أنها قد تنبع من ذهنية راسخة لدى جل السكان، هذه البيوت المهجورة منذ زمن طويل وتبعا لمعتقدات بعض الناس تحولت إلى مأوى للجن! (مسكونة) لذلك نجدهم غالبا لا يحبذون سُكناها، ولعل هذا أحد أسباب تزايد عدد الدور المهجورة التي تفاقم حجم الخراب بجل من حواضر الصحراء. وإن لم يكن بوسعنا حصر دقيق لحجم الخراب بحواضر شنقيط وولاته وودان وتيشيت، إلا أن أوديت دي بيگادو[134] قدّرته بنصف نسيجها العمراني. وإن كان ذلك قد لا يخلُ من مبالغة حسب تقديرنا، إلا أن حضور موضوع الخراب ضمن المواضيع التي طرحت في النوازل على الفقهاء[135] يعكس حجمه وأهمية حضور موضوعه ضمن مشاغل سكان هذه الحواضر.

4. أركيولوجيا حواضر الصحراء

ومما يبرز حجم النسيان المطبق على حواضر الصحراء الوسيطة المندثرة أن أسماء المدن الأصلية لم تعد تطلق على مواقعها الأثرية اليوم، فتكداوست هي اسم موقع أطلال أودغست، و"المدينة العامرة" تطلق على أطلال سجلماسة، و"السوق" هو اسم موقع أطلال تادمكة الواقعة شمال مالي، وكومبي صالح تطلق على موقع مدينة غانه الوسيطة التي تقع

132. "(...) ثمّة جدلية حيوية بين المدينة التي تشيّد والمدينة التي تندثر، فالخراب في هذه الحالة ليس سوى قفا المدينة، قفا أكثر حضورا أحيانا من الوجه؛ إنه المكان الآخر الذي يكتنف بصمته وغموضه الحركة الهشّة في هذه الحواضر النائمة، هو في الوقت نفسه ذاكرة نصف مطمورة ومكان نفايات، شبكة معالم ومستودع مواد أولية لتهويبات معمارية جديدة."

"... Il y a une dialectique dynamique entre la ville qui se reconstruit et la ville qui se déconstruit. La ruine n'est ici que l'envers de la ville. Un envers souvent plus massivement présent que l'endroit. L'autre lieu enveloppe de son mystère et de son silence la frêle agitation de ces bourgades assoupies. A la fois mémoire, à demi ensevelie et dépotoir, réseau de repères et dépôt de matières premières pour de nouvelles pérégrinations architecturales," Dujarric, *Vie et architecture*, 3 (préface Adel Wedoud Ould Cheikh).

133. Odette Du Puigadeau, "Architecture maure," *Bulletin de l'IFAN*, série B, XVII (1960): 95.

134. Du Puigadeau, "Arts et coutumes," 403.

135. أمبويه ابن الإمام، **نازلة في حكم ما تدم شركة الدور**، مخطوط، بخزانة الطالب أبو بكر المحجوبي بولاته، مسجلة تحت رقم 124، صفحتان من الحجم الصغير.

في موريتانيا وخلافا لموقعي أودغست وغانه اللذين حاصرهما النسيان المطبق. ولم يتغير اسم حاضرة المرابطين بالصحراء آزوكي رغم اندثارها منذ العصر الوسيط، وظل اسمها ورسمها في ذاكرة ووجدان أهل الصحراء حتى اليوم.

بيد أنّ الباحث في تاريخ هذه الحواضر الوسيطة المندثرة، وأمام شحّ المصادر المكتوبة وما بقي في تلافيف الذاكرة، حول حواضر أودغست، غانه المندثرتين، يجد نفسه ملزما بالاستعانة بالأركيولوجيا، علما لا غنى عنه لإعادة ماضي بناء هذه الحواضر، كما تبرز أيضا في هذا السياق أهمية دراسة أسماء الأماكن وما يمكن أن توفره من إمكانات للكشف عن بعض الغموض الذي يكتنف جوانب من تاريخ حواضر الصحراء الوسيطة المندثرة، لتسهم إلى جانب الأركيولوجيا في إعادة تركيب وبناء جزء يسير من ماضيها.

لقد أطبق النسيان على ماضي حاضرة غانه الوسيطة منذ اندثارها خلال القرن 14م[136] وبقيت مجهولة الموقع حتى بداية الاستكشافات الكولونيالية الفرنسية في القرن العشرين الميلادي، وقد كشف الغموض الحاصل بشأن تحديد موقع أطلال هذه المدينة ريمون موني،[137] فاستطاع تحديد موقع الشطر الإسلامي لمدينة غانه، الذي كان يستوطنه التجار المسلمون، ولم تنجح الأركيولوجيا في الوقوف على أي أثر لمدينة غانه الأميرية السودانية.

وقد حسم ريمون موني[138] مسألة تحديد موقع مدينة غانه سنة 1951 اعتمادا على مقاربة تركيبية اعتمدت التفاعل والتكامل بين ما ورد ذكره في الأدب الجغرافي العربي الوسيط،[139] واستنادا إلى المجهودات المونوغرافية المتعلقة بغانه في الذاكرة الجماعية السودانية،[140] مشفوعة أيضا بنتائج الحفريات التي أنجزها في موقع كومبي صالح مع بول توماسي[141] في سنوات 1949-1951، حيث تأكد انطلاقا من بعض اللقى والمعثورات – خصوصا الخزف الإسلامي المطلي – وبعض العناصر من الثقافة المادية الأخرى، فضلا عن معطيات جغرافية وطوبونيمية أن موقع مدينة غانه، بكومبي صالح التي تقع بمنطقة الحوض الشرقي على

136. Sophie Berthier, *Capital of Ancient Ghana. Recherches archéologiques sur la capitale de l'empire du Ghana: Etude d'un secteur d'habitat à Koumbi Saleh, Mauritanie. Campagnes II-III-IV-V, 1975-76 - 1980-81*, Cambridge Monographs in African Archaeology 41 (Oxford: Archaeopress, 1997), 102.

137. Raymond Mauny, "La photographie aérienne et les recherches archéologiques en A.O.F," *Notes Africaines* 53 (1952): 8.

138. Raymond Mauny, "Etat actuel de la question de Ghana," *Bulletin de l'IFAN*, série B, XIII (1951): 469.

139. Charles Monteil, "Les "Ghana" des géographes arabes et des européens," *Hespéris* XXXVIII (1951): 441-52.

140. Charles Monteil, "La légende du Ouagadou et l'origine des Soninké," *Mélanges ethnologiques*, *mémoire de l'IFAN* 23 (1953): 359-408.

141. Raymond Mauny et Paul Thomassy, "Campagne de fouille à Koumbi Saleh," *Bulletin de l'IFAN*, série B, XIII (1951): 438-62.

بعد 70 كيلومترا جنوب مدينة تنبدغه جنوب شرقي موريتانيا غير بعيد من حدودها مع جمهورية مالي.

كما ظلت أودغست، وعلى الرغم من أهميتها بين حواضر المغرب في العصر الوسيط،[142] مجهولة الموقع على مدى عدة قرون من الزمن، بعد اندثارها نهاية العصر الوسيط، إلى أن تمّ التعرف عليها أثناء الاستكشافات الكولونيالية الفرنسية بموريتانيا خلال القرن العشرين، بموقع بتكداوست جنوب شرقي موريتانيا على بعد 35 كيلو مترا شمال شرقي تامشكط، وهو الموقع الذي افترض إداريون فرنسيون أنه موقع أودغست[143] قبل أن يتمّ التأكد منه على أيادي باحثين فرنسيين.[144]

وقد انطلقت الأركيولوجيا بموقع تكداوست بصورة محتشمة منذ سنة 1961 بواسطة ورشات مدرسية لطلبة من قسم التاريخ بجامعة داكار، فكانت البداية الجدّية من خلال حملتين للحفريات؛ أولاهما بين 1965-64، وثانيهما بين 1971-70، وذلك بدعم مادي ومعنوي من الدولة الموريتانية.[145] وعلى الرغم من الحصيلة الهامة لهذه الحفريات وإسهامها في سد ثغرات هامة في معارفنا التاريخية، إلا أن أحد أبرز المؤرخين[146] يرى أن هذه الحفريات قد أنجزت من قِبَل أشخاص لا تتوفر فيهم الشروط اللازمة للقيام بهذا العمل الميداني، وإن

142. اعتبرت أودغست من لدن بعض المؤرخين المعاصرين إحدى مدن المغرب الإسلامي الهامة في العصر الوسيط، راجع: الحبيب الجنحاني، **المغرب الإسلامي: حياته الاقتصادية والاجتماعية (3-4هـ/9-10م)** (تونس: الدار التونسية للنشر، 1978)، 191-217؛ إسماعيل العربي، **المدن المغربية** (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984)، 114-118.

143. يعتبر الضابط بوري أول من افترض أن تكداوست هي موقع أودغست، قبل أن ينشر الإداري لافورك مقالا حول الموضوع، راجع:

Lieutenant T. Boery, "Le Rkiz (Mauritanie), essai de monographie local," *Bulletin du comité d'études Historiques et scientifiques de L'A.O.F.* (juillet-décembre, 1927): 353-57; Pierre Laforgue, "Notes sur Aoudaghost: ancienne capitale des berbères Lemtouna," Bulletin de *l'IFAN*, série B, II (1940): 217-36.

144. بعد معاينة الأستاذ ثيودور مونو لموقع تكداوست سنة 1934 والأستاذ ريمون موني سنة 1949 واختبارهما للخراب، غدا احتمال اعتبار هذا الموقع أطلال أودغست المندثرة طرحا مقبولا وغير مستبعد. راجع مقالي الباحثان بهذا الخصوص:

Monod, "Sur quelques constructions," 25-6; Raymond Mauny, "Les ruines de Tegadoust et la question d'Aoudaghost," *Notes africaines* 48 (1950): 107-9.

145. تجدر الإشارة إلى اهتمام أول رئيس لموريتانيا الأستاذ المختار ولد دادّاه أثناء رئاسته (1960-1978) بالأبحاث الأركيولوجية حيث كان يتابع تقدم العمل بموقعي كومبي (غانه) وتكداوست (أودغست) وقام بزيارات ميدانية للموقع الأثرية، وكتب تقديما للجزء الأول من أبحاث تكداوست، راجع:

Jean Devisse, Denise Robert-Chaleix et Serge Robert, *Tegdaoust I: recherches sur Aoudaghost* (Paris: Arts et métiers graphiques, 1970), préface de Moktar Ould Daddah, 5.

فضلا عن دعم الدولة المادي والمعنوي لهذه الأبحاث آنذاك، راجع بهذا الخصوص:

Denise Robert-Chaleix et Serge Robert, "Douze années de recherches archéologiques en république islamique de Mauritanie," *Annales de le F.L.S.H de Dakar* 2 (1972) :198-9; Jean Devisse, introduction de *Tegdaoust III*, 10, note 1.

146. محمد المختار ولد السعد، "عوائق البحث في التاريخ الموريتاني،" الوسيط، **مجلة المعهد الموريتاني للبحث العلمي** 2 (1988): 29.

كانوا أكفاء من الناحية التقنية. لقد أكد ريمون موني[147] قبل انطلاق حفريات تكداوست بسنوات عديدة أنه على الرغم من الحاجة الماسة إلى الأركيولوجيا لتكملة النقص الناتج عن عدم كفاية النصوص المتعلقة بتاريخ منطقة غرب إفريقيا في العصر الوسيط، إلا أنّه حذّر من المصاعب التي قد تعترض سبيل الباحث في آثار هذه المنطقة، وهي مصاعب قد تختلف عن تلك التي قد تعترض باحثا آخر في أوروبا أو الشرق الأوسط مثلا؛ فأمام اتساع الرقعة وتعدد الحضارات والأعراق: الزنوج، الأمازيغ والعرب، يجد الباحث نفسه مجبرا على البحث عـن طرق ومناهج لاستيعاب هذا التعدد، أضف إلى هذا كله أن إمكانات البحث الأركيولوجي المتاحة كانت متواضعة، والمناهج المتبعة غالبا ما تكون أمبيريقية ونتائجها غير دقيقة، حيث يسهل تسرّب الأخطاء إلى نتائج أعمالها.[148]

ومهما يكن من أمر، فإن أركيولوجية مواقع حواضر غرب الصحراء الوسيطة المندثرة مثل تكداوست، كومبي صالح، وعلى الرغم من النتائج الهامة التي أنجزها فريق الحفريات بتكداوست المتكون من جان دوڤيس، وسيرج روبير، ودنيز روبير فضلا عن طلبتهم ما بين 1961 وسنة 1979 وحتى 1981، إذ قاموا بـــ 17 مهمة من الأبحاث الأثرية بتكداوست، و6 مهمات في كومبي صالح، و3 مهمات إلى آزوكي، إلا أننا اليوم وبعد مضي ما يقرب من أربعة عقود من الزمن على هذا المجهود العلمي الهام مطالبون اليوم بتدقيق ومراجعة الأخطاء التي قد تكون تسرّبت إلى حصيلة أعمالها، والناتجة عن ضعف الزاد النظري لجل الطلبة ضمن الفريق الذين أنجز بعضم أطاريح ضمن هذا الفريق. وهذا على الرغم مما يذكر عن تواضع زادهم التاريخي، الذي لا غنى عنه للمختص في الآثار، فبدونه لا يعدو ما يقوم به سوى عمل فني سطحي، هذا فضلا عن عدم وضعهم في الحسبان للاعتبارات الخصوصية للبحث الأثري في هذه المنطقة التي كان قد شدد عليها ريمون موني آنفا.[149] إن أركيولوجية هذه المواقع مطالبة مستقبلا بتلافي أخطاء الأعمال السابقة ومراجعتها، واعتماد طرق ومناهج تنطلق من حصيلة التجارب المنقضية، والشروع في أعمال جديدة بغية الكشف عن الغموض الذي ما زال يكتنف حلقات أخرى من ماضي هذه الحواضر. وتبقى الملاحظة الهامة بخصوص حواضر الصحراء الوسيطة، تلك التي أكد عليها جان دوڤيس؛[150] ففي ضوء ظاهرة اندثار جل هذه الحواضر يرى أنه يتأكد إيلاء أهمية خاصة لأركيولوجيا صحراوية مقارنة تُعنى بحواضر المغرب الصحراوي الوسيطة، وهو تمشي لا محيد عنه، بغية سدّ ثغرات مهمّة في المعرفة التاريخية حول مجمل حواضر الصحراء.

147. Mauny, *Tableau géographique*, 56-7.
148. Ibid., 64-5.
149. Ibid., 56.
150. Devisse, Robert-Chaleix et Robert, *Tegdaoust III*, 533.

الخاتمة

تكتسي حواضر الصحراء أهمية خاصة في سيرورة التمدن الإسلامي، بيد أنها خلافا للقاعدة السائدة، حواضر لم تظهر في كنف دول! كما أنها لا تتمتع بامتيازات مناخية، وهي تُمثل في نظرنا استثناء شبه حضري ظهر بمنطقة قاحلة أملى عليها وضعها المناخي هيمنة نمط عيش ظلت تطبعه البداوة والترحال، ويبدو أن ثِقل الإرث البدوي بهذا المجال الصحراوي شكل عائقا جديا ساهم في عرضيّة وهشاشة التجارب العمرانية التي عرفتها منطقة غرب الصحراء. هذه المعوقات البيئية والحضارية التي وقفت ومازالت تقف في وجه التمدن حتى اليوم بهذا الجزء من الصحراء، لو لم تقم تجارة المسلمين منذ القرن الثامن الميلادي من أجل جلب الذهب من بلاد السودان إلى بلاد المغرب، لظلت مستمرة، ولم يكن غرب الصحراء ليرث محطات قوافله التجارية، حواضر زاوجت بين أنماط عيش مجموعتي الرحّل والمستقرين، وظلت تنوء بإرث بداوة ساكنتها ولم تتخلص منه بتاتا. ومن المفارقة أن نفس المزاوجة هي التي كانت قد قامت على أسسها أنماط الحياة الحضرية بالنسبة إلى الإسلام المبكر؛[151] فخلال الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، تحولت حواضر أودغست وغانة من ممالك صغيرة إلى محطات على طرق القوافل ثم إلى مستوطنات تجارية فعلية مع استقرار جاليات من تجار بلاد المغرب[152] بهاتين الحاضرتين – بكل ما يحمله الاستيطان من معاني التثاقف – هذه التجربة أحدثت نُقلة نوعية في استغلال الفضاء وفي الأنماط المعمارية، وذلك بما حمله أولئك المستوطنون[153] من بذور تحضر وأنماط عيش شمالية إلى الصحراء جنوبا، إلا أن تلك التجربة لم تستمر طويلا. إذ اصطدم ما حاول التجار الوافدون من الشمال غرسه في الصحراء بأودغست وغانه بتقاليد البداوة والترحال الراسخة لدى السكان المحليين.

ولم تكد تختفي حواضر أودغست وغانه وتادمكه – التي مثّلت الجيل الأول من مدن القوافل غرب الصحراء – حتى بدأ الجيل الثاني في الظهور، مُمثلا في حواضر ولاته وتنبكتو، وشنقيط وودان وتيشيت التي شكلت امتدادا وتواصلا مع حواضر الجيل الأول، خصوصا في مستوى الوظائف التجارية. غير أن ما ميز الجيل الثاني من حواضر غرب الصحراء، أن تجارة القوافل ساعدت على انتشار الثقافة العربية الإسلامية المكتوبة، حتى أصبحت المخطوطات خلال القرن السادس عشر الميلادي من أهم سلع التجارة الصحراوية؛[154]

151. De Planhol, *Les fondements géographiques*, 27; Terrasse, "Citadins," 7.

152. البكري، **المغرب**، 158.

153. جان دوفيس، "الفن الإسلامي والتأثيرات الفنية الإسلامية في شعوب إفريقيا السوداء،" ضمن **الفن العربي الإسلامي**، الجزء الثاني (تونس: الألكسو، 1995)، 408.

154. Michel Abitbol, "Le Maroc et le commerce transsaharien," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée* 30 (1980): 15.

فقد ذكر الحسن الوزان أن المخطوطات الواردة من بلاد المغرب كثيرة، وتُدِرُّ أرباحا تفوق سائر أرباح البضائع الأخرى.[155] وهذا ما يشهد عليه الكم المعتبر الذي وصل إلينا من المخطوطات العربية بخزائن تنبكتو وشنقيط وولاته وتيشيت وودان، مما سمح لبعض من حواضر الصحراء والساحل السوداني مثل شنقيط وتنبكتو بإشعاع حضاري، متأخر بدأت ارهاصاته في القرن السابع عشر الميلادي وبلغ أوجه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واكتسبت هذه الحواضر الإسلامية الهامشية بذلك وظائف دينية ومعرفية جعلتها تصبوا إلى أن تتحول إلى "دور علم" احتذاء بمراكز عريقة بمدن إسلامية كبرى، مثل القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة.

واستطاعت مجتمعات حواضر الصحراء شبه البدوية إبان عصر انحطاط الثقافة العربية إنتاج ثقافة مكتوبة بالعربية في شنقيط وتنبكتو وولاته وودان وتيشيت، مما يشكل في حد ذاته استثناء فريدا لسكان المناطق الصحراوية في العالم الإسلامي الممتدة من هضبة إيران شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، إذ يُعد البيضان الحسانيون سكان هذه الحواضر مجموعة البدو الرحّل الوحيدة التي تمتلك تقاليد ثقافية مكتوبة،[156] بينما جرت العادة أن يعيش البدو عالة على أهل المدن في مجال المعرفة. مما قد يُمثل استثناء لما ذهب إليه ابن خلدون[157] من أن الكتابة تُكسب بالتحضر وتنعدم في ظل البداوة.

وعلى الرغم من انحسار جل حواضر الصحراء على إثر قطيعتها مع نمط الإنتاج (تجارة القوافل) الذي أفرزها، وصُمِّمت وفق مقتضياته، إلا أن بعضا منها بدأت تستعيد عافيتها خلال السنوات الأخيرة مع نمو السياحة الصحراوية ودخولها ضمن دورة اقتصادية تثمن تراثها الثقافي العمراني المتواضع ومخطوطاتها ونمط عيشها الفريد.

155. الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 167.

156. Harry Thirlwal Norris, "Muslim Sanhaja Scholars of Mauritania," in *Studies in West Africa History*, *vol. I: The Cultivators of Islam*, ed. John Ralph Willis (London: Frank Cass,1979), 150.

157. عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1973)، 524.

Bibliographie

ʿAbbās, Iḥsān. *Tārīkh dawlat al-anbāṭ*. ʿAmmān: Dār al-Shurūq, 1987.

Abitbol, Michel. "Le Maroc et le commerce transsaharien." *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée* 30 (1980): 5-20.

Al-ʿabdarī, ʾAbū ʿabd ʾAllāh Muḥammad ibn Muḥammad. *Al-Riḥla al-Maghribiyya*. Taḥqīq Muḥammad al-Fāsī. Al-ribāṭ: Jāmiʿat Muḥammad al-Khāmis-Wizārat al-dawla al-mukallafa bi al-shuʾūn al-thaqāfiya, 1968.

Al-ʿĀmilī, Ibn Simmāk. *Al-ḥulal al-mūshiya fī dhikri al-akhbār al-murrākushiya*. Taḥqīq Suhayl Zakkār wa ʿabd al-Qādir Zmāma. Ad-dār al-bayḍāʾ: Dār al-Rashād al-ḥadītha, 1979.

Al-ʿArabī, Ismāʿīl. *Al-Mudun al-Maghribiyya*. Al-Jazāʾir: al-Muʾassasa al-waṭaniyya li al-kitāb, 1984.

Al-Bakrī, ʾAbū ʿUbayd ʾAllāh. *Muʿjam mā istaʿjam fī ʾasmāʾ al-bilād wa al-mawādiʿ*. Taḥqīq Muṣṭafā al-Saqqār. Bayrūt: ʻAlam al-kutub: s.d.

_____. *Al-Mughrib fī dhikri Ifrīqiyya wa al-Maghrib*. Nasharahu De Slane. Al-Jazāʾir: Maṭbaʿat al-Ḥukūma, 1857.

Al-Balādurī, Aḥmad ibn Yaḥyā. *Futūḥ al-Buldān*. Taḥqīq ʿAbd ʾAllāh ʾAnīs al-ṭabbāʿ wa ʿUmar ʾAnīs al-ṭabbāʿ. Bayrūt: Dār al-nashr li al-Jāmiʿiyyīn, 1957.

Al-Hāshimī, Riḍā Jawād. "Tijārat al-qawāfil fī al-tārīkh al-ʿarabī al-qadīm." Ḍimna *al-qawāfil wa dawruhā al-haḍārī ḥattā nihāyat al-qarn al-tāsiʿ ʿashar*, 7-28. Baghdād: al-ʾAliksū, 1984.

Al-ʾIdrīsī, ʾAbū ʿAbd ʾAllāh al-Sharīf. *Nuzhat al-mushtāq fī ʾikhtirāq al-ʾāfāq*. Rome-Napoli: Istituto Universitario di Studi Orientali, 1971.

Al-Janḥāni, al-Ḥabīb. *Al-Maghrib al-ʾIslāmī: ḥayātuhu al-ʾiqtiṣādiyya wa al-ʾijtimāʿiyya (3-4 hijrī/9-10 mīladī)*. Tūnus: al-Dār al-Tūnusiyya li al-nashr, 1978.

Al-Masʿūdī, ʿAlī ibn al-Ḥasan. *Murūj al-dhahab wa maʿādin al-jawhar*. Taḥqīq Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿabd al-Ḥamīd. Bayrūt: al-makttaba al-islamia s.d.

Al-Mūsawī, Muṣṭafā ʿAbbās. *Al-ʿawāmil al-tārīkhiyya li nashʾat wa taṭawwur al-mudun al-ʿarabiyya al-ʾislāmiyya*. Baghdād: Dār al-Rashīd, 1982.

Al-Ramādī, Munīra. "Tārīkh al-mudun al-ʾislāmiyya al-ʾuwlā." Ḍimna *al-Fan al-ʿArabī al-ʾIslāmī*, vol. II, 9-25. Tūnus: al-ʾAliksū, 1995.

Al-Saʿdī, ʿAbd al-Raḥmān. *Tārīkh al-Sūdān*. Taḥqīq wa tarjamat O. Houdas. Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient: Adrien Maisonneuve, 1981.

Al-Wazzān, al-Ḥasan ibn Muḥammad. *Waṣfu Ifrīqiyā*. Tarjamahu ʿan al-faransiyya Muḥammad Ḥajjī wa Muḥammad al-akhḍar. Bayrūt: Dār al-gharb al-islāmī, 1983.

Al-Yaʿqūbī, Aḥmad ibn Waḍiḥ. *Al-tārīkh*. Bayrūt: Dar Sader, s.d.

_____. *Kitāb al-buldān*. Manshūr ḍimna Kitāb al-aʿlāq al-nafīsa li ibn Rustuh. Leyde: E.J. Brill, 1892.

Al-Zahri, ʾAbū ʿAbd ʾAllāh. "Kitāb al-jughrāfiya." Taḥqīq Muḥammad Ḥāj Ṣādiq. *Bulletin d'études orientales* XXI (1968): 312 p.

Ann McDougall, Elizabeth. "The Ijil Salt Industry its Role in the Pre-colonial Economy of the Western Sahara." Phd., University of Birmingham, 1980.

Azurara, Gomes-Ennes. *Les chroniques*. Paris: Éd. Duchartre, 1934.

Barth, Henri. Voyages *et découvertes dans l'Afrique septentrionales et centrale pendent les années 1849-1855*, traduction de l'allemand par Paul Ithier. Paris-Bruxelles et Leipzig: Firmin Didot frères, fils et C^{ie} - A. Lacroix, Verboeckhoven et C^{ie}, éditeurs1860.

Berthier, Sophie. *Capital of ancient Ghana. Recherches archéologiques sur la capitale de l'empire du Ghana: Etude d'un secteur d'habitat à Koumbi Saleh, Mauritanie.*

Campagnes II-III-IV-V, 1975-76-1980-81, Cambridge Monographs in African Archaeology 41. Oxford: Archaeopress, 1997.

Boery, Lieutenant T. "Le Rkiz (Mauritanie), essai de monographie local." *Bulletin du comité d'études Historiques et scientifiques de L'A.O.F.* (juillet-décembre, 1927): 353-57.

Bonte, Pierre. "Faire fortune au Sahara: permanences et rupture." *Cahiers des sciences humaines*, nouvelles série, 16 (2000): 49-65.

_____. "Esquisse d'une histoire foncière de l'Emirat de l'Adrar." *Annuaire de l'Afrique du Nord* XXII (1983): 323-45.

Brunschvig, Robert. "Urbanisme médiéval et droit musulman." *Revue des études islamiques* XV (1947): 127-55.

Būrwība, Rashīd. *Mudun mundhatira: Tāhart, Sadrāta, ʾAshīr, Qalʿat Banī Ḥammād*. Al-Jazāʾir: Wizārat al-iʿlām wa al-thaqāfa, 1981.

Cahen, Claude. "L'or du soudan avant les almoravides: mythe ou réalité ?" *Revue française d'histoire d'outre-mer* LXVI, no. 242-243 (1979): 169-75.

Capot-Rey, Robert. *Le Sahara français*. Paris: PUF., 1953.

Corral, José. *Ciudades de las caravanas; alarifes del Islam en el desierto*. Madrid: Edit. Hermann Blume, 1985.

Despois, Jean. "Fazzan." In *Encyclopédie de l'Islam*, 2nd ed, vol. II, 895-98. Leyde-Paris: E.J. Brill- G.-P. Maisonneuve & Larose S.A., 1965.

_____. "Ghadamès." In The Encylopedia *of Islam*, vol, II, 991-3. Leiden: E.J. Brill-Tuta Sub Aegid Pallas, 1991).

Devisse, Jean. "Al-fan al-ʾislāmī wa al-tåthīrāt al-fanniya al-ʾislāmiyya fī shuʿūb ʾIfrīqyā al-sawdāʾ." Ḍimna *al-Fan al-ʿArabī al-ʾIslāmī*, 391-411. Tūnus: al-ʾAliksū, 1995.

_____. "Stratigraphie et architecture." In Jean Devisse, Denise Robert-Chaleix et Serge Robert, *Tegdaoust III: Recherches sur Aoudaghost. Campagnes 1960-65. Enquête générales*, 31-244. Paris: Éd. Recherches sur les Civilisations, 1983.

_____. "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle." *Revue d'histoire économique et sociale* L (1) (1972): 42-73.

_____. "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle." *Revue d'histoire économique et sociale* L (3) (1972): 357-97.

Devisse, Jean, Denise Robert-Chaleix et Serge Robert. *Tegdaoust I: recherches sur Aoudaghost*. Paris: Arts et métiers graphiques, 1970.

Devisse, Jean, Denise Robert-Chaleix et Serge Robert. *Tegdaoust III: Recherches sur Aoudaghost. Campagnes 1960-65. Enquête générales*. Paris: Éd. Recherches sur les Civilisations, 1983.

Du Puigadeau, Odette. "Arts et coutumes des maures II." *Hespéris-Tamuda* IX (1968): 329-413.

_____. "Architecture maure." *Bulletin de l'IFAN*, série B, XVII (1960): 92-133.

_____. *Tagant*. Paris: Julliard, 1949.

Echallier, Jean-Claude. "Sur quelques détails d'architecture du Sahara occidental." *Le Saharien* 42 (2) (1966): 33-46.

Fernandes, Valentim. *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*. Paris: Publications du Comité d'Etudes historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale française-Larose, 1939.

Gaden, Henri. "Les salines d'Aoulîl." *Revue du monde musulman* XII (1910): 436-43.

Gaudio, Attilio. *Les Civilisations du Sahara*. Bruxelles: Éd. Gérard, 1967.

_____. *Le Sahara des africains*. Paris: Julliard, 1960.

Gautier, Émile-Félix. *Le passé de l'Afrique du nord*. Paris: Payot, 1952.

_____. *Le Sahara*. Paris: Payot, 1928.
_____. *Les siècles obscurs du Maghreb*. Paris: Payot, 1927.
Ḥamdān, Jamāl. *Jughrāfiyat al-mudun*. Al-Qāhira: ʻĀlam al-kutub, 1977.
Hansen, Jean. *Vie d'un village isolé du Sahara mauritanien*. Nouakchott: Centre Culturel A. de Saint-Exupéry, 1971.
Hugot, Henri J. *Le Sahara avant le désert*. Toulouse: Éditions des Hespérides, 1974.
Hugot-Buffet, Marie-Paule. *Tichitt: Mauritanie Sud-est*. Paris: Ministère de la coopération, 1977.
Ibn ʿAbd al-Ḥakam, ʿAbd al-Raḥmān. *Futūḥ Ifrīqiyya wa al-Andalus*. Taḥqīq ʿAbd ʾAllāh ʾAnīs al-Ṭabbāʿ. Bayrūt: al-sharika al-allamiya lilkitab, 1987.
Ibn ʿAbd ʾAllāh, ʿAbd al-ʿAzīz. *Al-Mawsūʿa al-maghribiyya li al-Aʿlām al-bashariyya wa al-haẓāriyya (Maʿlamat al-Saḥrāʾ)*. Al-Muḥammadiya: Maṭbaʿat Fḍāla, 1976.
Ibn ʾabī Zarʿ, ʾAbū al-Ḥasan. *Al-ʾanīs al-muṭrib bi rawḍi al-qirṭās fī akhbār mulūk al-Maghrib wa tārīkh madīnat Fās*. Al-ribāṭ: Dār al-Manṣūr li al-ṭibāʿa wa al-wirāqa, 1972.
Ibn al-Faqīh al-Hamadhānī, ʾAbū Bakr ʾAḥmad Ibn Muḥammad. *Mukhtaṣar Tārīkh al-Buldān*. Leyde: E.J. Brill, 1967.
Ibn al-ʾimām, ʾAmbūyah. *Nāzila fī ḥukmi mā tadumu sharikat al-dūr*. Makhṭūṭ bi khizānat ʾAbū Bakr al-Maḥjūbī bi Wallāta, no. 124, safḥatān min al-ḥajm al-ṣaghīr.
Ibn al-Ṣaghīr. *ʾAkhbār al-ʾàimma al-rustumiyyīn*. Taḥqīq Muḥammad Nāṣir wa ʾIbrāhīm Baḥaz. Bayrūt: Dār al-Gharb al-ʾIslamī, 1986.
Ibn Baṭṭūṭa, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. *Tuḥfat al-nuẓẓār fī gharāib al-amṣār wa ʿajāib al-asfār*. Al-Qāhira: al-maktaba attijariya al-kubra,1958.
Ibn Ḥabt, Aḥmad. *Tārīkh Ibn Ḥabt*. Makhṭūṭ, nuskhat ʿAbd al-Raḥīm wald al-ḥanshī.
Ibn Ḥawqal, ʾAbū al-Qāsim al-Naṣībī. *Ṣūrat al-ʾarḍ*. Bayrūt: Dār Ṣādir, s.d.
Ibn Khaldūn, ʿAbd ar-Raḥmān. *Kitāb al-ʿibar wa dīwān al-mubtadà wa al-khabar fī ʾAyyām al-ʿArab wa al-barbar wa man ʿāṣarahum min dhawī ʾash-shảni al-akbar*. Bayrūt:Dār al-kitab al- Loubnani, 1973.
Ibn Saʿīd, ʿAlī ibn Mūsā. *Kitāb al-jughrāfiya*. Taḥqīq Ismāʿīl al-ʿArabī. Bayrūt: al-Maktab al-tijārī li aṭ-ṭibāʿa wa al-nashr wa al-tawzīʿ, 1970.
Jacques-Meunié, Denise. *Le Maroc Saharien des Origines à 1670*. Paris: Klincksieck, 1982.
Jʿayyit, Hishām. *al-Kūfa: nashʾat al-madīna al-ʿarabiyya*. Bayrūt: Dār al-ṭalīʿa li al-ṭibāʿa wa al-nashr, 1993.
Lacoste, Yves. *Ibn Khaldoun: naissance de l'Histoire*. Paris: Maspéro, 1966.
Laforgue, Pierre. "Notes sur Aoudaghost: ancienne capitale des berbères Lemtouna." Bulletin de *l'IFAN*, série B, II (1940): 217-36.
Lethieleux, Jean. *Ouargla cité saharienne*. Paris: Paul Geuthner, 1983.
Lewicki, Tadeusz. "L'État nord-africain de Tâhert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIII[e] et au IX[e] siècle." *Cahiers d'Etudes Africaines* VIII (2) (1962): 513-35.
Lombard, Maurice. "L'évolution urbaine pendant le haut moyen-âge." In *Espace et réseau du haut-moyen-âge*, 47-72. Paris et La Haye: Mouton, 1972.
Marçais, Georges. "L'urbanisme musulman." In *Mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman*, 219-31. Alger: Imprimerie Officielle, 1957.
_____. *La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge*. Paris: Aubier, 1946.
_____. "La conception des villes dans l'Islam." *Revue d'Alger* II (1945): 517-33.
Marçais, William. "L'islamisme et la vie urbaine." In *Articles et conférences*, 59-67. Paris: Adrien Maisonneuve, 1961.
Mauny, Raymond. *Les siècles obscurs de l'Afrique noire*. Paris: Fayard, 1970.

_____. *Tableau géographique de l'Ouest africain au moyen-âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie*. Dakar: IFAN, 1961; réédition: Amsterdam: Swets & Zeitlinger N.V., 1967.

_____. "Notes d'histoire et d'archéologie sur Azougui, Chinguetti et Ouadane." *Bulletin de l'IFAN* XVII (1-2) (1955): 142-62.

_____. "La photographie aérienne et les recherches archéologiques en A.O.F." *Notes Africaines* 53 (1952): 7-8.

_____. "Etat actuel de la question de Ghana." *Bulletin de l'IFAN*, série B, XIII (1951): 463-75.

_____. "Les ruines de Tegadoust et la question d'Aoudaghost." *Notes africaines* 48 (1950): 107-9.

Mauny, Raymond et Paul Thomassy. "Campagne de fouille à Koumbi Saleh." *Bulletin de l'IFAN*, série B, XIII (1951): 438-62.

McCall, Daniel. *Al-riwāyāt al-tārīkhiyya ʿan tàsīs Sijilmāssa wa Ghāna*. Taʿrīb wa taʿlīq Muḥammad al-ḥamdāwī. Ad-dār al-bayḍāʾ: Dār al-thaqāfa, s.d.

Mercier, Marcel. *La civilisation urbaine du Mzab*. Alger: Éditions P. & G. Soubiron, 1932.

Monod, Théodore. *Méharées*. Paris: Éd. Je sers, 1937; nouvelle édition, Arles: Actes Sud, 1989.

_____. "Sur quelques constructions anciennes au Sahara occidental." *Bulletin de la société géographie et d'archéologie d'Oran*, LXXXI (1948) : 23-56.

Montagne, Robert. *La civilisation du désert: nomades d'orient et d'Afrique*. Paris: Hachette, 1947.

Monteil, Charles. "La légende du Ouagadou et l'origine des Soninké." *Mélanges ethnologiques*, *mémoire de l'IFAN* 23 (1953): 359-408.

_____. "Les "Ghana" des géographes arabes et des européens." *Hespéris* XXXVIII (1951): 441-52.

Moraes Farias, Paulo F. de. "Silent Trade: Myths and Historical Evidence." *History in Africa* I (1974): 9-24.

Muqābala bi tārīkh 26 mārs 2003, maʿa al-sayyid ʾAbātī wld Ambwīh, 68 ans, al-Mḥājīb bi Wallāta.

Muqābala bi tārīkh 27 yanayr 2003, maʿa al-sayyid Dādda wld ʾIydd, 86 ans, al-Ṭalba bi Tīshīt.

Ould Maouloud, Mohamed. "Tichitt avant le déclin." Thèse de doctorat en histoire, Université de Paris I, Panthéon-Sorbonne, Paris, 1998.

Pauty, Edmond. "Villes spontanées et villes créées en Islam." *Les annales de l'institut d'études orientales d'Alger* IX (1951): 52-72.

Planhol, Xavier de. *Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam*. Paris: Flammarion, 1968.

Polet, Jean. *Tegdaoust IV: fouille d'un quartier de Tegdaoust (Mauritanie): Urbanisation, utilisation de l'espace construit.* Paris: Éditions Recherches sur les Civilisations, ADPF, 1985.

Robert-Chaleix, Denise et Serge Robert. "Douze années de recherches archéologiques en république islamique de Mauritanie." *Annales de le F.L.S.H de Dakar* 2 (1972): 195-233.

Saḥḥāb, Victor. *ʾĪlāf quraysh, riḥlatu al-shitāʾ wa al-ṣayf*. Bayrūt: Kumbyūnshr wa al-Markaz al-thaqāfī al-ʿArabī, 1992.

Shefer, Charles. *Relation de voyage à la côte occidentale de l'Afrique d'Alvisa Cada Mosto (1455-1457)*. Paris: Ernest Leroux, 1895.

Tārūdānt: Ḥāḍirat Sūs. ʾAgādīr: Manshūrāt Kulliyat al-ʾādāb wa al-ʿulūm al-insāniyya, 1993.

Terrasse, Henri. “Citadins et grands nomades dans l’Histoire de l’Islam.” *Studia Islamica* XXIX (1969): 5-15.

Thiriwal Norris, Harry. “Muslim Sanhaja Scholars of Mauritania.” In *Studies in West Africa History*, *vol. I: The Cultivators of Islam*, ed. John Ralph Willis, 147-59. London: Frank Cass,1979 .

_____. “The History of Shinquit, According to the Idaw Ali Tradition.” *Bulletin de l’IFAN* XXIV (1962): 393-409.

Vernet, Robert. *La préhistoire de la Mauritanie*. Nouakchott: Centre Culturel Français - Sépia, 1993.

Wld al-Ssaʿd, Muḥammad al-Mukhtār. “ʿAwāiqu al-baḥth fī al-tārīkh al-murītānī.” *al-Wasīṭ; majallat al-Maʿhad al-murītānī li al-baḥt al-ʿilmī* 2 (1988): 28-43.

Yāqūt, Shihāb al-dīn Abū ʿabd ʾAllāh. *Muʿjam al-buldān*. Bayrūt: Dār Sader, 1957.

العنوان: حواضر إسلامية تجارية بالصحراء (مدن القوافل)

ملخص: ظل المجال الصحراوي مجالا بدويا بامتياز، هيمنت البداوة والترحال على نمط عيش سكانه، وعلى مر العصور ظلت القبيلة هي المقوم الأساسي للاجتماع البشري في الصحراء وليست المدينة! ويبدو أن تجارة القوافل عبر الصحراء بما انجر عنها من رخاء اقتصادي نسبي انعكس على مستوى عيش الساكنة، استطاعت إحداث تغير واضح في نمط عيش بعض مجموعات من البداة الرحل. بالرجوع إلى طرح ابن خلدون المتعلق بالعمران البدوي نجد أنه يرى أن حياة أهل البادية إنما تقوم على الكفاف، وأنه إذا حصل فائض وزاد على مستوى عيش الكفاف فإن ذلك قد ينزع بهم إلى الاستقرار الذي يؤدي إلى الدعة والسكون وتأسيس المدن وتحصينها والتأنق في الملبس... وهذا ما يكاد ينطبق على ما أحدثه ازدهار تجارة القوافل بالمجال الجغرافي الصحراوي، فقد سمح ظهور عدد من محطات تجارة القوافل بانتقال جزء سكان هذه المنطقة تدريجيا من نمط البداوة الرعوية إلى الاستقرار التجاري.

فقد عرفت الصحراء الكبرى ظهور أنماط شبه حضرية عتيقة تجلت في مدن القوافل التي ارتبط ظهورها بازدهار تجارة القوافل منذ القدم في الجزيرة العربية وأطرافها قبل ظهور الإسلام وأشهرها: بترا، وتدمر، والحيرة...، كما عرفت صحراء إفريقيا الوسطى منذ العصر القديم مدن قوافل لعل أشهرها مدينة غدامس التي ذكرها هيرودوت. وبفعل اهتمام تجار المسلمين بذهب بلاد السودان الغربي منذ القرن 8م بدأت تظهر محطات للقوافل، على المسالك الصحراوية الرابطة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، وأدى ازدهار التجارة خلال العصر الوسيط إلى بروز شبكة من مدن القوافل ببلاد المغرب أودغست، وسجلماسة، ورقلة، قسطيلية، زويلة فزّان، وقد شكلت هذه الحواضر رغم هامشيتها ثراء وتنويعا للرصيد العمراني للإسلام، بيد أنها لم تخل من بعض خصائص ومميّزات المدينة الإسلامية رغم طابعها الصحراوي. وقد شكلت هذه الحواضر استثناء شبه حضري لما ظل سائد في مجال جغرافي صحراء بدوي، وأحدثت قطيعة في مستويات عدّة أبرزها نمط الاستقرار وطرق استغلال الفضاء.

لقد قسمنا مدن القوافل التجارية التي ظهرت بمجال غرب الصحراء منذ العصر الوسيط إلى جيلين؛ الجيل الأول: حواضر أودغست، غانه، تادمكة وهي حواضر معاصرة لمدينة سجلماسة في المغرب الأقصى ظهرت وازدهرت ثم اندثرت في ذات الحقبة الوسيطة، قد ورد أول ذكر لها ضمن الأدب الجغرافي العربي خلال القرن 8م. ولم تكد تندثر حواضر الجيل الأول نهاية القرن 14م حتى بدأت حواضر الجيل الثاني في الظهور ممثلة في حواضر ولاته وتينبكتو وودان وتيشيت وشنقيط، وشكّلت حواضر الجيل الثاني امتدادا وتواصلا لحواضر الجيل الأول، خصوصا في مستوى الوظائف التجارية والأنماط العمرانية وطرق استغلال الفضاء شبه الحضري، وحسب ما يتضح من نتائج الحفريات الأثرية لفريق جان دوفيس بمواقع تكَداوست (أودغست) وغانه (كومبي صالح)، فإن حواضر الجيل الأول المندثرة مارست تأثيرا بالغا في رسم الملامح الحضرية لحواضر الجيل الثاني التي ما زلت قائمة تغالب الزمن!

الكلمات المفتاحية: مدن إسلامية بالصحراء، مدن القوافل، قصور صحراوية، تراث عمراني صحراوي، تاريخ حواضر الصحراء.

Titre: **Les villes du commerce caravanier en Mautitanie.**

Résumé: Le Sahara est restée un espace nomade par excellence, la bédouinité et le nomadisme ont dominé le mode de vie de ses habitants et, au cours des siècles, la tribu a été le principal creuset de la rencontre humaine dans le désert et non la cité! Le commerce caravanier à travers le Sahara, dont la prospérité économique relative se reflète dans le niveau de vie de la population, semble avoir transformé le mode de vie de certains groupes de nomades. Se référant à la proposition d'Ibn Khaldoun concernant l'urbanisation bédouine, il conclut que la vie de la Badiya est basée sur la subsistance et que, s'il y a un surplus et une augmentation du niveau de subsistance, cela pourrait tendre à la stabilité qui conduit à la supplication et à l'immobilité et à l'établissement de villes, à la fortification et à l'habillement ... C'est presque le cas avec l'essor du commerce caravanier dans la zone géographique saharienne, à la faveur de l'émergence d'un certain nombre de stations d'échange de caravanes qui ont permis à la population de la région de passer progressivement du nomadisme pastoral à la stabilité commerciale.

L'apparition dans le désert du Sahara d'anciens schémas semi-urbains se manifeste dans les cités caravanières, associées à la prospérité du commerce caravanier depuis l'Antiquité dans la péninsule arabique et ses périphéries avant l'avènement de l'islam et les plus célèbres: Petra, Palmyre. En ce qui concerne le désert d'Afrique centrale, ils s'y trouvent des anciennes cités caravanières. La ville la plus célèbre de celle-ci est Ghadamess, mentionnée par Hérodote (Cydamus). En raison de l'intérêt des marchands musulmans pour l'or du Soudan occidental depuis le VIII^{ème} siècle, des stations de caravanes ont commencé à apparaître tout le long des routes du désert reliant le Maghreb et à celui du Soudan occidental. Malgré la nature marginale de ces cités, elles ont enrichi et diversifié l'équilibre physique de l'islam.

Ces métropoles constituaient une exception quasi-urbaine à la géographie du désert bédouin et constituaient une rupture à plusieurs niveaux, notamment le schéma de stabilité et les modes d'utilisation de l'espace. Nous avons divisé les cités caravanières commerciales qui ont émergé l'Ouest Saharien depuis le Moyen Âge en deux générations: La première génération: les villes d'Aoudaghost, Ghana, Tadmaka, villes contemporaines de celle de Sidjlmassa à l'extrême Maghreb ont émergé et ont prospéré, puis ont disparu à la même époque médiévale, ce qui a été mentionné pour la première fois dans la littérature géographique arabe au VIII^{ème} siècle de notre ère. Les villes de la première génération s'étaient à peine éteintes à la fin du XIV^{ème} siècle, jusqu'à l'apparition de la deuxième génération, représentée dans les cités de Walatta, Toumbouctou, Wadane, Tichit et Chinguetti. Les villes de deuxième génération étaient un prolongement et une extension des villes de première génération, en particulier en ce qui concerne les fonctions commerciales, les schémas urbains et les méthodes d'exploitation de l'espace périurbain, des caractéristiques urbaines des métropoles de deuxième génération qui demeurent encore vivantes, défiant le temps!

Mots-clés: Villes islamiques au Sahara, cités caravanières, ksour sahariens, patrimoine urbain saharien, histoire des cités sahariennes.